دكتور إبراهيم مدكور

فى الأخلاق والاجتماع

د. إبراهيم مدكور

في الأخلاق والاجتماع



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٤

■ إيضــاح

ترجع الأبحاث التى نقدمهـا هنا الى نحو ربع قرن أو يزيد ، وكان ينبغى أن تنشر حين ذاك نشراً شاملا منسقا ، ولـكن زحمة الحياة وتياراتها التى تجتذبنـا شـمالا ويمينا حالت دون ذلك • وقد ألقيت عليها نظرة أخيراً ، ورأيت أنهـا صـالحة للنشر دون تعديل أو اضـــافة ، ولعل فيها ما يواجه أمورا لاتزال فى حاجة الى مزيد درس وبحث • وقد كتبت هذه البحـوث متفـرقة ، ولاعتبـارات مختلفة ، واتجه كل واحد منها نحو هدف خاص • ولكنها فى جملتها تدور حـول سـلوك الفرد والمجتمع ، وتصوب الى طائفة من الآراء والأفكار ، أو العادات والتقاليد • ولذلك رأينا أن نقسمها الى بابين: أحدهما فى الأخلاق ، والآخر فى الاجتماع •

ونريد بالأخلاق ما يتصل بسلوك الفرد من رأى أو عمل ، ولم نعالج فى هذا الا موضوعات محدودة ، حاولنا أن نفسرها تفسيرا فلسفيا ، وأن نقف بوجه خاص عند آثارها التطبيقية • فأشرنا الى أن تربيتنا لا تعنى عناية كافية بتشجيع النوايا الصادقة وتكوين الضمائر الحية ، ولاحظنا أن حياتنـا الصاخبة تغمرنا بضجيج لا ينقطع ، فلا

نكاد نخلو الى أنفسنا ، ولا ننعم بمراجعة ما عملنا ولا بمحاسبة ضمائرنا • وبدا واضحا أن الأعمال الناجحة تستلزم عقيدة صادقة ، وحرارة ايمان دافعة ومحركة • واستوقفنا أيضا ذلك النزاع الأزلى بين الحق والقوة فعرضنا لشيء من تاريخه ، وبينا محاولات المفكرين فى مختلف العصور لتوضيحه وتفسيره ، وانتهينا الى أنه نزاع الأمس واليوم ، وسيبقى نزاع الغد مادام فى الدنيا أقوياء وضعفاء ، وعلى الضعيف أن ينهض من كبوته •

***

وفى الاجتماع عنينا بظاهرة واحدة ، نعتقد أنها من أعمق الظواهر الاجتماعية أثرا ، وهى ظاهرة الخرافة • تتبعنا آثارها فى المجتمعات البدائية والمتحضرة ، القديمة والحديثة ، وقلبناها على وجوهها المختلفة فى ضوء دراسات اجتماعى انجليزى كبير تعهدها فى عمق وطرافة ، وهو فريزر أستاذ الاجتماع بجامعة كمبردج •

واذا كانت الأمم النامية تحاول ما استطاعت أن تنهض ببنيانها الاقتصادى ، فما أحوجها أيضا أن تعزز بنيانها الثقافى ، وللخرافة فى هذا البنيان شأن خاص • ونحن لا ننكر أن للأمم الناهضة والدول الكبرى خرافاتها ، ولكن أن تتحكم الخرافة فى مظاهر الحياة فى مجتمع ما ، فذلك تخلف لا يمكن السكوت عليه •

فى الأخلاق

١ - الضمير

● غامض فى لفظه غموضه فى معناه ، ومستتر رغم ما يبرز من آثار ، هو أقرب الأشياء منا وألزمها لنا ، بل يكاد يكون كل شيء فينا : « والمرء بأصغريه قلبه ولسانه » . بيد أنا ان حاولنا توضيحه توارى بالحجاب وأمعن فى الاستتار والخفاء . نؤمن بوجوده دون أن نراه أو نفهم فى وضوح حقيقته ، وكيف ننكره وفى انكاره انكار لأنفسنا وهدم للدعامة الأولى من دعائم شخصيتنا ؟ يأمر فيطاع ، وينهى فيستمع له ، ويسر ويحزن ، ويخالط عواطفنا وأحوالنا النفسية على اختلافها ، يعقد محكمته فى أسرع من لمح البصر ، ويصدر أحكاما غير قابلة للنقض . لذلك اتجه اليه الواعظ فى وعظه ، وناداه رجل الدين فى نصحه ، وجعله الأخلاقى أساساً لدرسه ، وتولاه عالم النفس بالبحث والتحليل .

يغلب على الظن أن العرب لم يستعملوا كلمة « ضمير » بمعناها الخلقى والنفسى الذى اصطلحنا عليه الآن ، واكتفوا بلفظ القلب أو الباطن أو السريرة . وهذا المعنى ، وان كان يقرب من

العرف الحاضر ، متميز منه تمام التميز . وفلاسـفة الاسـلام ومتصوفوه ، برغم تحليلهم الدقيق لبعض العواطف النفسية كالعشق والشوق والندم والتوبة ، لم تجر كلمة « ضمير » على لسانهم الا في دوائر تختلف كثيرا عما نحن فيه ، ويظهر أن العرب قد استعاضوا عن هذه الكلمة بلفظة « زاجر » التي تؤدي معناها بعض الأداء : « من لم يكن له من نفسه زاجر ، لاتنفعه الزواجر » . فكلمة « ضمير » بمدلولها الفلسفي وضع حديث ، واستعمال يرجع به العهد فيما نعقد ، الى أخريات القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين ، حين بديء في ترجمة كلمة conscience الاجنبيـة ، وهذه الترجمة وان تكن صادقة في جملتها ـ مثار غموض واشتباه ، لأنها تعبر عن الضمير الخلقي والضمير النفسي بلفظ واحد . وقد وقعت اللغة الفرنسية في هذا الغموض من قبل ، واستعملت لفظاً مشتركا للدلالة على الضمير من حيث مظاهره الخلقية وأحواله النفسية . وتنبه الألمان والانجليز الى هذا فخصوا الضمير النفسي بلفظ يميزه من الضمير الخلقي ، وأصبح لعلم النفس كلمة يدل بها على الضمير غير تلك التي يستعملها الأخلاقي (١) . وما أجدر كل اصطلاح بأن يوضع

---

(١) نعلم أن الفرنسيين يستعملون من غير تمييز كلمة conscience في ابحاثهم الخلقية والسيكلوجية ، وقد يضيفون اليها أحيانا وصفا مخصصا فيقولون : Conscience morale et conscience psychologique أما الألمان والانجليز فيسمون الضمير الخلقي : Gewissen, conscience والضمير النفسي : Bewusstein, consciousness

له لفظ خاص يناسبه (١) ، غير أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه التفرقة اللفظية انما يراد بها فقط فصل العلوم بعضها عن بعض ، وقصر كل فن على مصطلحات معينة ، والا فالواقع يشهد أن الضمير الخلقى هو الضمير النفسى ملحوظاً فيه معنى الخير والشر • فليس فى الانسان ضميران يفصل أحدهما فى الأحكام الخلقية ويتولى الآخر الأحوال النفسية ، لكل منا ضمير واحد قد تتنوع أسماؤه بتنوع مظاهره ووظائفه •

دراسته :

لم يعن الاغريق بموضوع الضمير ولم يدرسوه الدراسة اللائقة به لا من الناحية الأخلاقية ولا من الناحية النفسية ، ذلك لأن الأخلاق كانت تعتمد عند فلاسفتهم الأول على أساس اجتماعى• فأفلاطون كان يتعزى عن شقاء الأفراد بما كان يرجو من سعادة المجتمع ، وأرسطو لا يكاد يفصل الحياة الخلقية من الحياة السياسية • نعم ان الأبيقوريين والرواقيين قد نحوا بالأخلاق منحى فرديا ، وحاولوا أن يؤسسوا سعادة الفرد على الفرد نفسه ، ولكنهم ذوو نزعة مادية تتنافى مع التحليل الروحى للضمير • ومن الناحية السيكلوجية نلاحظ أنه فات الاغريق ، بل القدامى عامة ، أن

---

(١) قد يسمى الضمير النفسى الشعور ، ولعل فى هذه التسمية ما يدل على وظيفته وان كانت لا تبين تماما حقيقته ، وقد شاعت أخيرا كلمة «الوعى» للدلالة على الضمير النفسى •

يدركوا وحدة الظواهر النفسية ، التى هى أثر من آثار الضمير • وأن من جهل هذه الوحدة أو قال بنظريات تناقضها لا يستطيع أن يفهم الضمير على وجهه الصحيح • وفوق هذا فانهم كانوا يخلطون بين الضمير وبعض الأحوال النفسية ، فأفلاطون مثلا لا يفرق بينه وبين المعرفة ، وأصحاب الرواق يطلقلونه على معرفة الحق والباطل • وقد بقى أمر الضمير مهملا الى أن جاء صوفية القرون الوسطى من مسيحيين ومسلمين فأعاروه جانباً من العناية والدرس • والتصوف ، وهو علم القلوب ، لا يمكنه أن يغفل مشكلة الضمير وينسى ركناً تقوم عليه المناجاة الروحية • لذلك نسمع رجلا كأبيلار بين المسيحيين يحدثنا عن الضمير وأثره فى الأعمال الخلقية ، كما نرى الغزالى مثلا بين المسلمين يشرح مراقبة النفس وقوة المحاسبة التى يمكن أن تنطبق على الضمير بمعناه الحديث • غير أن هذه المحاولات فى جملتها محدودة وجزئية • والى رجال العصور الحديثة يرجع الفضل فى شرح موضوع الضمير ومنحه ما يتطلب من عناية ومجهود • وتكاد تكون المدرسة الايقوسية أول من تنبه الى هذا الجانب الهام من النفس والى أثره فى الأخلاق• ثم تبعتها مدارس أخرى اعتنقت رأيها أو ردت عليها ، الى أن جاء وليم جيمس وبرجسون فدرسا الضمير دراسة نفسية قضت على كثير من النظريات القديمة ، وغيرت مجرى التفكير فى علم النفس الى حد كبير • ولم يفت الاجتماعيين المعاصرين أن يعرضوا لمشكلة

الضمير ويوضحوها على ضوء البيئة والظروف الاجتماعية • وهذه الدراسات مجتمعة ترمى الى تحديد ماهيــة الضمير وحقيقته ، وبيان أصــله وطبيعته ، وتوضــيح قيمته ووظيفته • وترمى أيضا الى اثبات تنوعه بتنوع الأفراد والجماعات ، وتطــوره تبعاً لاختــلاف العصور والأجيال •

حقيقتــه :

فى قرارة نفوسنا وحيث تتكون أفكارنا وتعد أحكامنا ، هناك رقيب ملازم يشــهدها ويقفنا عليهــا أولا فأولا ، هــذا الرقيب هو ضميرنا والشــعور الروحى الذى نحس به على أثر أية حركة من حركاتنــا النفسية ، والالهام المستمر الذى ينقل الينا كل ما يجول بالخاطر • فالمرء حين يفــكر يشــعر فى الوقت نفســه بما يصنع ، ويدرك أن تفكيره من عمله وقطعة منه • وكذلك شأنه حين يقارن أو يوازن أو يتذكر معلومات قديمة أو يقضى فى أمر بقضــاء ما ، أو يسر أو يحزن ، أو يحب أو يبغض • وشعور الانسان بتفكيره وادراكه لخفايا قلبه ليس الا معرفته لنفســه ووقوف روحـــه على ما تعمل • وعلى هذا فالضــمير جزء لا ينفصل من الظواهر النفسية وأساس لكل أعمالنا الباطنية • هو الشخصية فى صــورتها البسيطة المجردة ، ومبعث النور الأول فى الحياة العقلية • وخطأ أن نعده قوة مستقلة ومتميزة من الأحــوال النفسية كالعين تتميز من الشىء

المرئى • فقد انقضى الزمن الذى كان يقال فيه بتقسيم النفس الى قوى منفصلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص • ولسنا فى حاجة لأن نقرر هنا أن فى الانفعالات مثلا قدراً من التفكير لا يصح انكاره ، كما أن الجانب الفكرى للانسان فى أرقى صوره مشوب ببعض العواطف والميول • على أن القول بالقوى ان صح تصوره بالنسبة لبعض مظاهر النفس ، فواضح عدم انطباقه على الضمير الذى هو الشكل العام ، ونقطة الاشتراك ، والصورة الرئيسية لكل الأعمال العقلية • والمدرسة الايقوسية وان كانت من أول من عنى بموضوع الضمير بين المحدثين أساءت من ناحية فى أنها عدته قوة قائمة بذاتها ، وشبهته بأحد النظارة يشهد رواية الحياة النفسية دون أن يقاسم فيها بنصيب (١) •

واذا كان الضمير شعور النفس بما تعمل ، فسهل أن نتبين فى هذا الشعور درجات بعضها أوضح من بعض • ففى اللحظات التى بين اليقظة والنوم نشعر بما يجرى فى نفوسنا شعوراً مبهماً غير محدود ، والأحلام والرؤى تتصل من غير شك بالضمير فى أغمض صوره ، أو ان شئت سمها مرحلة العقل الباطن ، فان جاوزنا هذه المرحلة وجدنا أحوالا نفسية واضحة بعض الشيء الا أنها سريعة وغير متمركزة ، وما ألصق هذه الأحوال بالأعمال العادية والأمور المألوفة ، فالضمير يدركها دون أن يقف أمامها

---

(١) Th. Reid, Essai sur fac. intell., III. 2.

طويلا • وبعد هاتين المرحلتين نصل الى درجة فيها تفكير وروية ، وتذكر وانتباه ، وبحث ومجهود • وهنا تبدأ المعرفة الحق ويدرك الضمير عمله في وضوح • وعلماء نفس الطفل المعاصرون ، وعلى رأسهم كلاباريد (Claparède) وبياجيه (Piaget) ، قد خصوا هذه المرحلة بقدر كبير من العناية ، وبينوا كيف يخطو الناشىء نحو ادراك نفسه وتكوين معلوماته ، ثم تجيء أخيراً مرحلة التفكير الانساني في أسمى صوره ، حيث تعرض المشاكل العلمية والفلسفية ، ويجهد الانسان نفسه في تفهمها وقلبها على وجوهها ، رجاء أن يصل الى حل واضح مقنع ، وما هذه المرحلة الا امتداد لسابقتها وصورة مكبرة لها ، والأبحاث العقلية في جملتها محك للضمير ، ومبعث نضال نفسي مستمر يراد به الوصول الى الأفكار الجلية النيرة •

خصائصه :

يزداد فهمنا للضمير اذا بينا الخصائص التي تمتاز بها مظاهره ، وقد عني جيمس وبرجسون بشرح هذه الخصائص وتوضيحها التوضيح الكافي ، وأول شيء نلحظه في الظواهر النفسية هو اختلاطها وتشعبها ، فلا نكاد نجد أنفسنا أمام ظاهرة واحدة منعزلة ، بل دائماً أمام مجموعات من أحوال نفسية مختلفة ، أو كما يقول جيمس أمام حقول اكتسى بساطها بشتى الأزهار والألوان

(fields of consciousness) • وفى ظاهرة نفسية واحدة ، تلتقى احســاسات متنوعة ، وذكريات قديمــة ، وعادات ثابتة ، وأفـكار عديدة ، وأحـكام وتعليـلات ، وموازنات لا حصر لهـا ، وهـذه الأحوال النفسية كالأمواج الزاخرة تجرى وتتغير من غير انقطاع ، ومن هنا جاء تعبير جيمس المشهور : تيار الفكر أو تيار الضمير (١)• فاحساسنا بشيء فى حال اليقظة مختلف عنه فى حال النوم ، وادراكنا لأمر ونحن متعبون يختلف عن ادراكنـا له ونحن مستريحـون • وشـعور هذه اللحظـة لا يتكرر مرة أخـرى فى نفس الظروف والمناسـبات التى اقتضته ، ولئن بدا تكراره لم يعد ذلك المظهر العام ، أما التفاصيل والجزئيات فمختلفة لا محالة ، وكأن حركة التفكير كنهر جار تتـابع موجاته الى ما لا نهاية دون أن تعود موجة سيرتها الأولى ، والفكرة الواحدة المستمرة التى تخطر ببالنا من حين لآخر دون تغيير أو تبديل أمر خيالى وبعيد عن الحقيقة (٢) • فنحن نحس الآن على صورة خاصة لن تستمر فى اللحظة التالية ، وما دمنا أحيـاء فنحن عرضـة للتغيير ، وما أصـدق بسـكال حين يقول : « الزمن يشفى الآلام والأحقاد لأنا متغيرون ولا نحتفظ بشخصية واحدة ، فلا المسيء ولا المساء اليه يبقيان كما كانا (٣) » •

---

(١) Stream of thought or stream of consciousness.

(٢) W. James, **Principles of Psychology**, I, pp. 231 ss.
H. Bergson. **Evolution créatrice**, p. 288.

(٣) Pascal, **Pensées**, **frag.**, 122.

بيد أن القول بأن ظواهر النفس فى حركة وتغير مستمر ليس معناه أن فى تيار الضمير انقساماً أو تبايناً . فظواهر النفس فى حركتها تدور حول نقطة واحدة وتتصل بأساس ثابت ، وحياتنا الروحية فى هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى وحدتها ، وعلى هذا فالحاضر من أحوالنا النفسية يحمل فى طياته الماضى ويعد للمستقبل ، وفى النفس حركة فى اتصال وتغير فى ارتباط . ومثل الحياة العقلية فى هذا مثل قطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقا . وما ذاك الا لأن أحوال النفس جميعاً متصلة بشخصية معينة ، ومنجذبة نحو مركز واحد ، ومنبعثة من شمس الضمير الوحيدة . وأوضح شىء فى عمل النفس أنه يستلزم فاعلا ، ففكرة ما اما أن تنسب الى أو اليك أو الى زيد من الناس . والفكرة التى لا أب لها لا أصل لها ولا وجود ، على أنها ان وجدت فلا سبيل الى تعرفها والتأكد منها ، لأن ما نتبادله من أفكار انما هو عمل أشخاص معينين محدودين .

من خصائص مظاهر الضمير التى ألممنا بها سراعا تتبين بطلان المذهب الذرى الذى يزعم أن الحياة العقلية بأسرها ترجع الى جملة أفكار بسيطة التقت وارتبطت ونتجت عنها أفكار أخرى مركبة ، ومجموع هذه وتلك مسود بقانون تداعى المعانى . فالظواهر النفسية تتلخص فى جملة وحدات وضع بعضها بجانب

بعض ، وفى مجرد انضمامها ما يكفى لتكوين حياة عقلية • تلك هى نظرية لوك ومن جاء بعده من رجال المدرســة الانجليزية أمثال هيوم وميل وبين وسبنسر • ولا يبعد عن هذه النظـرية كثيرا ما قال به كونديالك الفرنسى من أن الروح ليست الا مجموعة صور حسية توزعت الى عدة طوائف فنشأت عنها القوى النفسية المختلفة • وكلتا النظريتين تهدم فكرة الضمير من أساسها ، ولا ترى فى النفس شيئا سوى ما يمليه الحس • لذلك قام فى وجهها الايقوسيون من جانب ، ومين دى يران من جانب آخـر ، مثبتين أن فى الروح حياة وقوة تجاوز المدركات الحسـية ، ولولا هذه القوة وتلك الحياة ما نظمت آثار الحس ، ولا نتجت عنها أفكار مستقيمة • هنـاك روح ، هنـاك نفس ، هناك شخصية ، أو هناك ضمير ، سمه ما شئت ، والمهم أن الظواهر العقلية ليست مجرد أوضـاع لصور حسية ، أو لوحدات متحجرة لا حياة فيها ، ولا تستطيع بالأولى أن تبعث الحياة فى غيرها• وأعمال بينيه ، ومدرسة فور تسبورج الألمانية وجيمس وبرجسون فى الخمسين سنة الأخيرة قائمة على شرح هذا الرأى ونصرته •

الضمير الخلقى :

والآن وقد اتضح الضـمير فى مظهره النفسى ، يجدر بنا أن نفرق بينه وبين الضـمير الخلقى ، أو أن نحدد بعبارة أدق مهمته من الناحية الأخلاقية • فى حين أن الضمير النفسى يقفنا على ما يجرى

في داخلنا ، ويشاطر في الظواهر العقلية على اختلافها ، يعني الضمير الخلقي باصدار الأوامر الصالحة والحكم على الأعمال الانسانية . فاذا ما تعلق بالمستقبل بدا أثره كصوت خفي يأمر وينهى ، واذا حكم على الماضي صحبت حكمه عواطف كثيرة من سرور أو ألم . « فصوت الضمير » هو ذلك النداء الخفي والوحي الشخصي الذي يدفعنا نحو غاية ، أو يصرفنا عنها ، وهذا التعبير فيما يظهر من أصل صوفي ، وقد جاء التحليل النفسي الحديث مؤيدا له . والمرء حين يقضي في أمر بقضاء ما يبدو كأنه تحت تأثير اتجاهات مختلفة ، ان ساد أحدها ارتفع صوته وصدر أمره . واذا كان صوت الضمير مبعث الأمر والنهي فوخزه مصدر الندم والألم . وكم اتجه أشخاص نحو جلائل الأعمال امتثالا لأصوات ضمائرهم ! وكم انصرف آخرون عن الشر ، لأنهم عانوا وخز الضمير وما جلبه عليهم من شقاء وبلاء !

٢-الوحدة

• شبح يهولنا اسمه ، ويزعجنا رسمه ، مع أنا لو عرفناه لألفناه ، ولو خبرناه لتعشقناه ـ ووحشة نفر منها فرارنا من الخطر الداهم ، أو العدو المهاجم ، ولو ثبتنا لها فى صبر وجلد لكسبنا المعركة وأصبحنا بوحدتنا سعداء ـ وعزلة قد يضيق لها الصدر ، وتنقبض النفس ، ولكنها عادة لا يمكن أن تكتسب الا بشيء من الدربة والمران ، ورياضة لاتخلو من مجهود أو عناء • وكيف لا تكون مجهدة وهى تقف حجر عثرة فى سبيل بعض الغرائز الكامنة ، وتحرم الفرد من لذائذ المجتمع ومغرياته الخادعة ، فتحول دون غريزة حب الاجتماع وسد حاجتها ، وتعارض صلات القرابة والمودة فى امتدادها وانبساطها ، بيد أنها فى كل هذا أشبه ما يكون بالدواء الممض نتعاطاه لما نرجوه بعده من برء وشفاء •

حقاً ان الوحدة طب للنفوس وعلاج للأرواح ، نستطب بها من ويلات المجتمع وآلامه ، فتقينا ولو زمناً لهيب الحقد والحسد وسموم القيل والقال ، وتبعدنا ولو الى حين عن مظاهر الشره

والجشع وظلم الانسان لأخيه الانسـان ، فلا تقع العين على وجـوه شاكية ، ولا تسـمع الأذن أصواتاً باكية ، ولا يقر اللسان مكيدة ، ولا تقاسم اليد فى جريمة ، ولا تسعى القدم الى خطيئة • وقديماً قالوا : «تشفى الوحدة من المجتمع بقدر ما يشفى المجتمع من الوحدة»• وبالوحدة نداوى كذلك أمراض القلب والروح ونعالج أنفسـنا بأنفسنا ، فنخرج من زمرة الأهل والاخوان وتيار الحياة الهائج المائج الى حيث السكون والتأمل ، ونبدد تلك السحب الكثيفة التى تنسجها المجتمع حولنا ، والأضواء البراقة التى تعشى لها أبصارنا لنرى بعين الحقيقة والاعتبـار • ولم تكن الوحـدة عبادة الا لأنهـا توبة وندم وتهذيب وتطهير •

وقد عرفت لها الأديان هذه المنزلة فدعت الى الخلوة والاعتكاف الذى لا يراد به مجرد أوراد تتلى أو أناشيد يترنم بها ، بل يقصد أن تعرض صـفحة الحياة على بساط البحث وتعقد محكمة الضمير فى جو هادىء ساكن ، وتقضى بقضائها العادل ان بالبراءة أو الاتهام• وما أحوجنا الى هذه الرقابة وهذا الحساب الدقيق دون انقطاع •• ! ولكن جد الحياة ولهوها وحلاوة العيش ومرارته تصرفنا عن ذلك ، وتلقى بنا فى بحـــر لجى لا سكون فيه ولا اطمئنان • ونحن فوق هذا مولعون بستر هفواتنا وتغطية زلاتنا ، نسترها على الناس وعلى أنفسنا ، ونتجاهلها وكل الأدلة قائمة عليها : مغالطة مدهشة وصلف كاذب وغرور غريب • وانك لترى الفـرد يأتى أمراً يأباه العرف

وينكره الدين ، فيسارع الى أن يعد نفسه فى صف المحافظين على التقاليد والمتدينين طمعاً فى أن تنسى فعلته وتخفى خطيئته . وقد نفهم هذا التصنع ان أراد أن يرضى به من حوله ، فأما أن يخدع به نفسه فتلك حماقة حمقاء وغفلة عمياء ، وما منا من أحد الا لاحظ أنه اذا حاسب نفسه على ذنب ارتكبته ، أو اثم اقترفته ، عز عليها هذا الحساب ، وقد تأبى وتستكبر وتشرد وتجمح . وكثيراً ما تفر الى المجتمع لتنزوى فى ركن من أركانه وتضل فى منعرجاته وعطفاته . والجناة والمجرمون أنفر الناس من العزلة والوحدة ، وأرغبهم فى الجلبة والضوضاء التى تخدر أعصابهم فلا يحسون ولا يشعرون . فلم يكن بد من أن تستثيرنا التعاليم السماوية الى الخروج من هذا التجاهل المزرى والتنكر المرذول .

والتصوف ، وهو فلسفة الوحدة ، يرى أن علاج الروح لا يتم الا ان شخص الانسان أدواءه بنفسه ، ووقف على عيوبه مباشرة وبدون واسطة ثم تعهدها بالتقويم والاصلاح . ويعتقد أن المرء أقدر على هذا التقويم اذا خلا الى نفسه وخلص من شواغله، فانه يلتقى بحسناته وسيئاته وجها لوجه ، ولا يجرؤ على المبالغة فى الأولى ولا على انكار الأخرى . واذا صح أن الطبيب هو الذى يقود المريض نحو طريق البرء والعافية ، فلا شك أن المريض هو الذى يقطع هذا الطريق بقدميه . على أنه لا يكاد يوجد طبيب يستطيع أن يتكهن بعلة قبل أن يعرف ظروفها ومكوناتها ، ولا أن يصف

دواء قبل أن يقف على حقيقة الشكوى وموضع الألم • فاذا أضحى العليل آسـيا كان أعرف الناس بعلته وأقدرهم على علاجها • لهذا تعشق الصـوفية الوحدة ، وحببت اليهم الخلوة التي يستطبون فيها من آلامهم ويداوون أمراض نفوسـهم • حقاً انهم ينشدون وراء الفراق تلاقيـاً ، ويأملون بعد الهجر وصلا ، ويرجون في الوحشة أنسـاً ، ولـكنهم لن يصـلوا الا عن هذا الطريق الوعر والمسلك الصعب • فالوحدة وسيلة لتهذيب النفوس والأرواح وسلم الوصول الى الغبطة والسعادة •

وليس أثرها مقصـوراً على الروح فحسب ، بل يتعداها الى العقل • ففيها تنضج الأفكار وتختمر الآراء وتتمحص الحقـائق ، وفوق سطحها الهادىء تتفجر ينابيع الحكمة ، ومن سمائها الصافية تتنزل آيات النور والمعرفة • فلولاها ما نعمنا بكثير من الأدب الرائع والخيال العذب والشعر الرقيق ، وفي غير جوها لا يستطيع أن يتوفر عالم على فرض يحققه ، أو فيلسوف على نظرية يناقشها ويحللها ، وبدونها لا يجـد السـبيل مصلح الى وضع نظمه السديدة ومبادئه القويمـة • واذا تتبعنا تاريخ الأنبياء والعظماء والقـادة والمصلحين والفلاسفة والمفكرين وجدنا أن أشـدهم تعلقاً بالمجتمع وشـئونه أرغبهم في ساعات خلوة يدبر فيها ما اضطلع به من مهام جسـام • ولئن كان المجتمع يمدهم بقدر كبير من الغذاء العقلي ، فهـم في مسيس الحاجة الى ساعات فراغ يمثلون فيها هذا الغذاء ، ويتعهدون

هذه البذور لتخرج للناس أينع الثمرات • ففى ردهات الأكاديمية ومتنزهات الليسيه أخـرج أفلاطون وأرسـطو أكمل وأتم فلسفة عرفت فى التاريخ القديم • وفى غار حـراء أعد « محمد » صلى الله عليه وسـلم نفسـه لقبول الوحى الالهى والتعاليم السـماوية • ولولا خلوات العلماء اليوم المستمرة وعزلتهم فى تجاربهم الدائمة ما خطا العلم خطوة واحـدة الى الأمام • وها هو ذا بعض الساسـة المعاصرين يحتذى حذوهم ، ويسير على سننهم ، فاذا ما جزبه أمر لجأ الى نفسـه فاسـتفتاها فى غير جلبة ولا ضوضاء ، وكان لغاندى خلوات وصمت طويل • ففى الخلوة صفاء عزّ أن يتوفر فى المجتمع، وفيها ضـياء ان مرت به سحب حياتنا الصاخبة خسفته • وفى العزلة تفكير وروية ونظر وتأمل لعل جيلنا الحاضر الذى انغمس فى بحار المادية أحوج ما يكون اليها •

هذه هى الوحـدة فى أثرها الروحى والفكرى والأخلاقى والعقلى • وهنا نتساءل : هل نحن نقدرها قدرها ونتعلق بأهدابها ؟ وهل يعنى الـكثيرون منا بلحظات فراغ يطمئنون فيها الى أنفسـهم ويركنون الى أشـخاصهم ؟ وهل عوائدنا وتقاليدنا تحترم سـاعات الوحدة والانفـراد ؟ لا أظن ، فان المقـاهى والأندية تأكل نصف أعمارنا أو يزيد ، وبيوتنـا مبغضـة الينـا كلّ البغض فلا نقصدها الا للنوم أو الطعام أو الشراب • وقد يصل الأمر بالطالب أن يذاكر دورسه على قارعة الطريق ، وبالأستاذ أن يحضر أعماله فى مجتمع

الاخوان ، وبالقاضي أن يدرس قضاياه في ناد عام . وكأننا نأبى الا أن نفكر جهرة كما نتكلم جهرة ، وأن نشترك في كل شيء لأنا لا نحسن الاستقلال بشيء ، واذا ما شاء أفراد أن ينظموا أوقاتهم ويخلصوا الى أنفسهم ولو ساعة أو ساعتين كل يوم عدا عليهم الزوار فقصدوهم على غير موعد ، وأطالوا مكثهم لديهم . وبذا أصبحنا لا يشعر واحد منا أن وقته ملكه بحال .

---

٣ - حرارة الإيمان

● ما أرهب ذلك الجيش السائر والبحر الزاخر والجمع الثائر يخوض غمار المعركة فى عزمة رجل واحد وهمة قلب صادق، فلا يلبث أن يكتب له النصر ويفوز بالغلب على من تفرقت بهم الميول والأهواء ! وما أروع تلك الرءوس الحاسرة والأجسام شبه العارية تجتمع فى صعيد واحد تسبح الله وتناجيه فلا تخشى بأس حر ولا برد ، ولا تألم من صر أوقر ! وما أخشع ذلك الناسك الذى حرم نفسه لذيذ الطعام والشراب ، واستطاب الخشن وغليظ الثياب ، وضوى جسمه من طول الركوع والسجود ، واحمرت عيناه من البكاء والسهر ! كل هؤلاء قد استولت عليهم فكرة وتملكتهم عقيدة ، فساروا وراءها طائعين ، واثتمروا بأمرها راغبين لا راهبين .

وكم من أفكار نسلم بها ، وآراء نوافق عليها ودعوات نصغى اليها ، ولكن طائفة قليلة منها فقط هى التى تنفذ الى قلوبنا وتمتزج

بأرواحنـا ، فنصبح طوع ارادتها ورهن مشـيئتها ، وما ذاك الا لأن الدعوات لا تتجه دائمـا الى القلب ولا تخاطب كلها الروح ، فمنها ما يرمى الى غاية مادية يتشبث بهـا من يرجـو أن يسـهم فيهـا بنصيب ، ويطمئن اليها من آثر العاجلة على الآجلة • ومنها ما يقوم على الحجة والبرهان والبحث والتعليل ، ولغة المنطق لا تلائم الناس على اختلافهم ولا يسمو اليها جمهورهم وعامتهم • لذلك كان أكثر الدعوات حظا من النجاح ألصقها بالقلب وأقربها الى الفؤاد ، وبقدر تفاوت الدعاة فى القدرة على تحـريك العواطف واثارة الشـعور تتفاوت آثارهم ويزيد أو ينقص عدد أتباعهم ، وعن هذا الشـعور تنبعث حرارة الايمان المتأججـة ، ومن تلك العواطف يتولد صدق العقيدة الباهر ، وفى القلب قوى خارقة للعادة وفى الروح أسرار تلين الحديد وتنسف الجبال ولا تبالى بصعاب •

هنـاك ضربان من الايمـان لا سـبيل الى خلطهما ولا الى انكارهما : ايمان العقل وايمان العاطفة ، أو ان شئت فقل : ايمان البرهان والتعليل والحجة والدليل ، ثم ايمان الشـعور والاحساس والقلب والروح ، فى أحدهما هدوء التفكير ورزانة المنطق ، وفى الآخر حمية الوجدان ونشاط العاطفة • لئن كان الأول قد استنار بنور الحجة وقوى على مجالدة الخصـوم ودفع الشـبه ، فان الثانى ينبعث من قرارة القلب وأعماق الفؤاد ، ولا يرى نفسه فى حاجة الى برهنة واسـتدلال ، ولا يأبه مطلقا بخصـوم ولا معارضـين •

والدعوات سياســية كانت أو دينيــة ، انما تقوم ابان نشــأتها على معتنقين اتجهوا نحوها بقلوبهــم وتفانوا فيها بأرواحهم ، فأصبحوا ولا يعز عليهم مطلب ولا تبعد عنهم غاية . وكم سمعنا أن قائدا تسلق مع جنده الجبال واخترق البحار وخاض غمار الشرق والغرب دون أن يتخلف عنه متخلف ، أو يقعد عن مناصرته الأتباع والأعوان . وكم روى لنا التاريخ من أخبــار زعماء سياســيين أو دينيين كانت اشــارتهم وحيــا وكلمتهم أمرا ، اذا ما تحركوا تحركت الألوف المؤلفة ، واذا ما دعــوا لبى الجميع ، فاذا ما فترت الدعــوة وضعفت العقيدة وخمدت حرارة الايمان الأولى ، أخــذ الناس يبحثون فى معتقداتهم ويعللون ويناقشون ويعارضون .

لهذا كان لابد لكل عقيدة من غذاء ، ولكل دعــوة من مواد تلهب الشــعور وتنمى العاطفة . وما الطقوس الدينيــة والصلوات المفروضــة والأدعية الخاشــعة والذكر الدائم والقرابين المتكررة ، الا وســيلة من وســائل جذب النفوس نحو عالم النور والألوهية ، والايمان والعقيدة . وعلى نحو هذا يجد السياســيون فى اقامة الحفــلات ، وتنظيم الدعــوات والمظـــاهرات والقــاء الخطب المثيرة للجماهير . واذا استطاع الزعيم أن يكون سياسيا ودينيا فى آن واحد أو بعبارة أخرى ، سياسيا وصــوفيا ، توفر لديه كثير من أســباب الغلبة والفوز ، وها نحن أولاء نرى زعماء العصر الحاضر يخلطون حركاتهم السياســية بآراء تتصل بالدم والجنسية والدين والعقيدة ،

فالهتلرية مثـلا نظرية سياسـية تعتمد على دعائم روحية وصوفية ، وهذا من غير شك عامل كبير من عوامل نجاحهـا وتقدمها • ولقد أجادت سـبل الدعاية وأتقنت طرق تنظيم الأتبـاع فى طـوائف وجماعات يميزها زى خاص وشـارات معينة ، فزادها هذا تقديسا لارادتها واستمساكا بنظرياتها • ولعل أعون شيء على تنمية الايمان والعقيدة أن يحس المؤمن أنه عضـو فى أسرة وجزء من مجتمع ، وأن يشـعر المعتقد أن عقيدته ذات سـيادة شـاملة وسلطان عام • وما نراه من تعصب أعمى أحيانا وغلو فى الدين أحيانا أخرى انما منشؤه تغلب العاطفـة على العقل ، والرغبة فى أن نحمل الناس على اعتناق كل ما ندين به من أفكار •

اختلف علماء الكلام المسلمون ـ كما اختلف رجال الدين من المسيحيين ـ فى حقيقة الايمان ، هـل يزيد وينقص وهل هو اذعان قلبى فقط أم هو اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالاركان ؟ وكأنى بهم جميعا قد تناسوا جانبه العاطفى ، ولو ذكروه ما وقعوا فى كثير من خلافاتهم • فالايمان على أنه حقيقة وفكرة قد لا يقبـل الزيادة والنقص ، أما الايمان الذى هو عاطفة تتأجج لحظة وتخمد أخرى فثمة مجال فسيح لزيادته ونقصه ، ويتبع هذا طبعا أن يكون الاعتقاد قويا أو ضعيفا جازما أو غير جازم • ولاشك فى أن الأعمال الخالصـــة تنميه والأقوال الصـالحة تغـذيه ، ومن ذا الذى ينكر

ما للدعوة والارشاد من أثر فى تربية النفوس وتهذيبها ، وما للتقرب والعبادة من قدرة على ربط الأرواح ووصلها بعالم النور والفيض •

ولا يضير الاعتقاد فى شيء أن يدفئه القلب بحرارته ، وتمده الروح بأسرارها • والعـواطف كانت ولاتزال ، من أهـم بواعث التفكير ودواعى العمل • والجماهير أخضع عادة للغة القلوب منهم للغـة العقل والمنطق ، ورب عاطفـة قوية أعون على تحقيق غايات سامية من تفكير عميق •

٤-العقيدة

● غذاء القلب وطمأنينة الروح ، ملجأ الضعيف وسلاح القوى . هي حقيقة امتزجت بحلاوة الخيال ، أو خيال لبس أحيانا ثوب الحقيقة . وما هذا الخيال وتلك الحقيقة الا صرح كثيراً ما شدناه بأنفسنا لأنفسنا كي نكمل مافى عالم الواقع من نقص ، ونحقق بعض ما نصبو اليه من ميول وآمال . فان ما فينا من قلب خافق وعواطف متأججة ، ينزع الى أمانى ورغبات لاحصر لها . ولذتنا فى تصور هذه الأمانى وسعادتنا فى السير وراءها . فان لم نجد السبيل الى تحقيقها حيث نرى ونسمع ، رسمنا لها مملكة سامية فوق مملكة الحس والمشاهدات ، وآمنا بها ايماناً لا يقل عن ايماننا بالمرئيات والملموسات . على أن ما فينا من عقل يحلل ويبرهن ويعلل يدفعنا الى الاعتقاد والاستمساك بآراء نتعصب لها ، وندين بها — فالعقيدة حاجة انسانية ، وأثر من آثار قوى النفس على اختلافها . وهى فوق هذا ضرورة اجتماعية وركن هام من أركان التعاون والارتباط . ولايمكن أن نتصور جمعية بشرية لايخضع أفرادها لمبدأ واحد وعقيدة مشتركة . واتحاد الدين

والعقيدة من أول الخصائص التي يتميز بها الشعب والأمة • وليست العقيدة المتحدة مجرد رمز وشارة للأمة فحسب ، بل هي مصدر تأثير كبير وقوة لانهائية • هي مبعث حرارة تدفيء القلوب فتدفعها الى الأمام وتملؤها بالأمل والرجاء • ومستودع كهربائية عظمى يرسل في الأفراد ما يرسلون من موجات سالبة وموجبة فيتجاذبون ويأتلفون ، ويلتقون عند غاية واحدة وغرض أسمى • وانا لنسير في الحياة غالباً بدافع من عقائد مختلفة بين دينية ووطنية وعلمية وفلسفية • والعقيدة كالأمل الحلو ان لم تبلغك الغاية فقد آنستك ونعمت بها زمناً • على أنها في ساعة الفشل خير عزاء ، وعند اشتداد الخطب أقوى ركن تطمئن اليه ان وهنت الأركان كلها • واذن العقيدة للفرد عون ونصير ، وللمجتمع باعث ومثير وهاد ومرشد •

ومن حسن حظ الانسانية أن المرء ميال الى الاعتقاد بفطرته ، ومدفوع اليه بغريزته ؛ فالتسليم أصلي والشك عرضي ، ولا أدل على هذا من أن حياة الانسان الأول كانت سلسلة من العقائد يرتبط بعضها ببعض ، وقد توارثها الخلف عن السلف وأذعنوا لها دون بحث وتعليل • والطفل وهو صورة مصغرة للانسانية في أول نشأتها يسلم بكل شيء يلقى اليه ، ويعتقد في السحرة والمشعوذين والجن والشياطين • ولا تبدأ حيرة الشك لديه الا حين يصطدم عالم الفكر بعالم الواقع ، ويتعارض أمامه أمران كان يؤمن من قبل بثبوتهما فترتاب نفسه وتشعر بشيء من الخيبة لم تكن تتوقعه •

ويظهر أن الشك كان فى أول أمره ظاهرة عاطفية قبل أن يكون مناقشة عقلية وحساباً منطقياً • وليس الشك شراً كله ، بل قدر منه مدعاة البحث ومفتاح الحقيقة ، وقديما قالوا : « الشك مبدأ الحكمة ومدرسة الحقيقة » • وقد استطاع سـقراط بين الاغريق بشىء من الشك التهكمى أن يستخرج المعارف من نفوس محدثيه ومناقشيه • ثم جاء ديكارت فى التاريخ الحديث فاتخذ من الشك طريقة فلسفية ومبدأ علمياً • للشك حكمته ومنفعته ، فهو ينبه الفلسفة الى أخطائها ويقف العقل عند حده ويرشده الى نقصه • غير أن قيمة الشك فى طريقة استعماله ووضعه فى موضعه • فالشك فى كل شىء قضاء على المعرفة من أساسها وهدم للحقائق على اختلافها • وقبول المعلومات من غير بحث وتمحيص انقياد أعمى واستسلام مرذول وضعف فى التفكير • وغنى عن البيان أن الشك ضرب من الحرية واستقلال الرأى • ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشكاك القدامى والمحدثين لفتوا نظر الانسانية الى أخطائها الشائعة وكشفوا الغطاء عن كثير من أباطيلها المسلمة • وكل ما يؤخذ عليهم أنهم أرسلوا للشك العنان ، وجالوا به فى كل ميدان ، فقضوا على ما كان فيهم من عبقرية ، وأصبح شكهم داء بدل أن يكون دواء ، وهدموا بالشمال ما بنوه باليمين • وليس فى الشك المقبول امتهان للحقيقة أو اعتداء عليها ، بل هو اعتداد بها وتقدير لها وجد فى طلبها • حقاً ان الشك حيرة وحمى قد تخشى على النفس مغبتها ؟ بيد أنه

قل أن يقـدر اليقين قدره من لم يغرق فى بحار الشك قليـلا ٠ والضال اذا وجد الطريق كان له بهذا فرحة تملأ العين والقلب ٠

اليقين كلمة عذبة الجرس ، حلوة الرنين ، سامية المعنى ، رفيعة المدلول ؛ تطـرب الأذن لسـماعها ، وتتوق النفس دائمـاً الى أن تحظى بحقيقتها ٠ ينشده العالم فى بحثه ، ويرمى اليه الفيلسوف فى درسه ، كلاهما يبغى أن يصل الى الحقيقة الثابتة التى يذعن لهـا الجميع في مختلف الظروف والأمكنة ٠ واذا كان الشك اضطراباً وحيرة ، فاليقين هدوء وطمأنينة ٠ هدوء لأنه راحة بعد عناء ، ووصول بعد مجهـود ، وطمأنينة لأنه حصن حصين ، وركن أمين ــ وكيف لا وهو قوة تستمد سلطانها من نور الحقيقة ، وحال يشعر المرء فيها بأنه لا يسمع الا صوت الحق ولا يصـغى الا لندائه ٠ولو تأملنـا لوجدنا أنا في مرحلة اليقين أقوياء ضـعفاء : أقوياء لأنا نحس بأنا نفذنا الى قلب الأشياء ووصلنا الى قمة العلم وتجردنا من قيود المادة والزمن ، واتصلنا بكل ما هو باق أزلى ، وضعفاء لأن جلال الحقيقة التى نعتنقها أسـكت كل صـوت فينا ، فألغى هواجسنا وخواطرنا ، وقضى على ميولنا وأهوائنا ، وأضـعف شـخصيتنا أو محاها بحيث نصبح ولغة العالم والانسانية جمعاء ديدننا وشعارنا ٠

هذا هو اليقين فى ظواهره وأثره وشدته وبأسه ٠ فهو اذن العقيدة فى أكمل صـورها ، والايمان فى أسمى أشكاله ٠ كثيراً ما حاول بعض الباحثين فصل اليقين من العقيدة ، والمباعدة بين العلم

والدين ، ووضع حاجز بين العقل والعاطفة ؟ الا أن اليقين لا يتحقق الا بعد عقيدة سابقة ، والعقيدة ان سمت وكملت أضحت يقيناً . والعلم برهن غير مرة على أن له نطاقاً لا يتعداه وحدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها ؟ فدع الدين يتكلم فيما أعد له ويتصرف في دائرته . والانسان عقل وقلب وتفكير وعاطفة ؟ ومن العبث أن يهمل أحد هذين الجانبين أو يلغى ، فان ذلك خروج على الطبيعة وعكس لنظام الأشياء . وليس من عار أن يكون في الأديان قدر كبير يرضى العواطف الانسانية ، بل العار كله أن تخلو من ذلك .

---

٥ - الخلود

● أمل حلو زاد التعلق به فلبس ثوب الحقيقة ، وخيال عذب طاب لنا أن نسبح وراءه فاكتسى بكساء الواقع ، وغيب شغفنا بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه فى مظهر الحاضر ، وسلوة تتسلى بها عن الحرمان أو عثور الجد وسوء الطالع ، وثأر من الموت ذلك الخصم العنيد الذى يحمل الشاب على الرحيل فى عنفوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه • فهو اذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس وشقاء وآلام وويلات ، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم فى سبيل فرج الغد ، وهو وصلة لأجل وان طال قصير ، وعمر وان بلغ أرذله عزيز ، وعيش وان ساء مرغوب فيه •

وربما كان حب الحياة أول ملهم بتجددها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول باستئنافها • وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد بصورة شتى وأشكال متباينة ، هى فى جملتها صدى لرغباته ونزعاته وميوله وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها • فتصور الهمجيون ـ الذى يعيشون عيشة السلب

والنهب والقتل وسفك الدماء ـ الخلود على أنه عودة للانسان فى شكل مارد جبار وشيطان رجيم يثأر لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض المتحضرين ضربا من اليقظة يرفل فيه المرء فى حلل السعادة وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينة والزخرف ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورته فى صورة أسمى ، وكسته بكساء أفخم ، وأغدقت على الحياة المقبلة متنوع الأوصاف ، بين مادية وروحية ، حسية وعقلية ، كى تقنع العامة والدهماء وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل فنسير وراءه سيرا أعمى ، وعذوبة الخيال فنتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين، وحرمة الدين فنؤمن به ايمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب ، ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا اياه وبلينا به فى آن واحد ، يأبى الا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا من أحلام لذيذة ، فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفة ، ويبحث ويعلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما لا يخضع لمبادىء القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه الى موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يتفهم سره وغايته ، ويبرهن على امكانه أو ضرورته . وليس ثمة فلسفة الا قالت فى الخلود كلمتها بالايجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض ، وأى فيلسوف لم يتساءل من أين جئنا ؟ والى أين نذهب ؟ ولم يبحث عن المصدر والمرد والمبدأ والمعاد؟

فاليونانيون وان كانوا قد شغلوا بالـكون وتغيراته والحيـاة الحاضرة وقوانينهـا لم يفتهم أن يدلوا فى هـذا الموضـوع الخطير بآرائهم • ورجال القرون الوسـطى كان لابد لهم أن يبدعوا فيـه ويعيدوا ويعترضوا ويجيبوا ، فهو من فلسفتهم الدينية فى صميمها ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليـهم أذهانهـم • وفى التـاريخ الحديث نرى الروحيين والماديين بين مثبتين للخلود ومنكرين • واذا شئنا أن نمثل لكل عصر من هذه العصور برجل ، فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع الخلود الا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانط •

فأما أفلاطـون فهو من غير شك أكثر فلاسـفة اليونان اشتغالا بالخلود ، وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقليـة منطقيـة • تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع ، ثم لم يقنع بهذا فوقف عليـه محاورة مسـتقلة مشـهورة هى « فيدون » • وفيهـا يجرى ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسـان أستاذه سـقراط ومن حوله من الأتبـاع والتلاميذ • وأفلاطون روائى ماهر وقصصى مبدع ، يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم بريشـة المصور الفنان • فهو يدع « سـقراط » المتهم البرىء الذى يرقب الاعدام بين عشـية وضـحاها ، والحى الذى يسـعى الى الموت فى خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ، ومختاراً أو شبه مختار ، يتحدث

عن خلود الروح فى آخر يوم من أيام حياته • فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط سنة معهودة فى حواره من استيلاء على نفوس محاوريه ، وارشاد الى سبل القول وهداية الى مواطن الضعف ، وافتنان فى وسائل الاثبات •

وتكاد ترجع برهنته على الخلود الى نقط ثلاث : برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة • فنحن نلاحظ أولا أن الشيء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، وأن الأكبر يتولد عن الأصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد • ومادام الموت والحياة ضدين فهما متعاقبان • وقديما قالت الأرفية والفيناغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية ! وبهذا يخرج الحى من الميت كما يخرج الميت من الحى ، وتبقى النفس رحالة منتقلة من جسد الى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء • ونسلم ثانيا مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ! والشبيه وحده هو الذى يدرك الشبيه • فلابد أن يكون للنفس ما للمثل من ثبوت وبقاء • وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومنافية للموت بطبعها ، فهى بحسب مدلولها وحقيقتها حياة • ولا يمكن أن يجتمع فى ماهية واحدة ضدان ! فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال •

وانى لأتساءل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون فى برهنته ؟ اذا اختبرنا أدلته لم نتردد فى أن نجيب بالسلب ، فان فكرة صدور

الضد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح بطلانها . ولا نظن أن أحدا يسلم اليوم مع الاغريق أن الانسان لا يدرك الا ما يشابهه ، فانا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الانسانية عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفسي القديم الذي كان يعد النفس في آن واحد مصدر الحياة والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فانه يصرح على لسان سمياس أن العلم بحقيقة الخلود ممتنع أو جد عسير في هذه الحياة . وجدير ببحث كهذا أن يوضع في قالب القصة وكفى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين .

وسواء أوفق أفلاطون في برهنته أم لا ، فانه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده ، ونهج نهجا حبب الى الخلف السير فيه ، فأنزل الخلود من السماء الى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثرا به في هذا الصدد ابن سينا الذي يردد بعض أدلته أحيانا أو يؤيدها ويدعمها أحيانا أخرى ، لاسيما وقد توافر لديه ما لم يتوافر لدى أستاذه ! فقد وقف على الوحي الالهي الذي صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة القرآن الصريحة في الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزاما عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفي خيال

حلو هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوى ، ومقامها فى هذا العالم الفانى ، ثم عودتها الى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهى ذات توجع

ان كان أهبطها الاله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لمالم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع

ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأبى الا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبته اثباتاً فلسفياً ، فيقرر أن النفس ، وهى جوهر بسيط ، لا يمكن أن تشتمل على مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن أن يكون فيها أى استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى الجسم أم فنى ، فان صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد فى شىء ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر فى شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته

من الفساد . فالنفس هي المتصرفة في البدن والمدبرة لأمره ، ولن ينقلب الآمر مأموراً ولا المتأثر مؤثراً . بيد أن حظ ابن سينا في هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون. فان الجوهر البسيط الذى يفترضه هو موضع البحث والمناقشة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ، ولم يتوصل أنصار المذهب الروحى على اختلافهم الى حلها أو الفصل فيها بقول جازم .

ولقد تنبه كانط الى هذا التهافت في البرهنة والقصور في الاثبات . فرفض في كتابه « نقد العقل النظرى » الأدلة التى تساق لأثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يهتدى الى شيء يقينى في دائرة الأمور المغيبة ، وفي هذا ما يسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان في جانبه ، وما يهييء للوحى والالهام الفرصة أن يكملا نقص البحث والنظر . خصوصا والمسئولية الأخلاقية لاقيام لها بدون الحساب والثواب والعقاب ، والواجب في حاجة ماسة الى تأييد الدين ونصرته . لهذا نرى كانط يعود في كتابه « نقد العقل العملى » فيحاول اثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن ظهر أنه لا يمكن اثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الأسمى الذى تنشده والسعادة الحقة التى نسعى اليها لا سبيل الى تحقيقهما في حياتنا الحاضرة القصيرة . فان شئنا أن يكون للواجب الذى ننادى به قيمته وللأخلاق التى ندعو اليها

جلالها وحرمتها ، فلابد أن نجزم بخلود الروح • لاسيما والعدالة تأبى كل الاباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الاعدام ، وأن يستوى البر والفاجر فى مصير واحد وفناء لا رجعة بعده • وكأنى بكانط يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ، ويوضح معنى أشار اليه من قبل شيخ الأكاديمية فى جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقى ليس اكثر اقناعا من سابقيه ؟ وكلّ ما يمتاز به أنه أقرب الى فكرة الخلود ، وأكثر تلاؤما مع طبيعتها ، وأميل الى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة • وما أشبهه بالفرض منه بالبرهان ، والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادىء أخرى •

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية • وما كان أغنى الفسلفة أن تغامر بنفسها فى هذا المضمار ، وأن تنزلج فى هذا المأزق الحرج • فى مقدورنا أن نقول انه ممكن أو محتمل أو ضرورى ، ولكن لا سبيل لنا بحال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعى • وأنى لنا ذلك ومن وصلوا الى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا الى حياة قاسوا فيها الأمرين ، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء ؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد الى درجة اليقين ، وليس فى وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة • واذا كان العقلَ عاجزا عن ادعام الخلود واثباته فهو أعجز عن دحضه وانكاره • وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادى أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة ، وأن بحثهم يرفض أى وجود بعد هذا

الوجـود • فان للتجربة ميدانا لا تتجـاوزه ، وللبحث العلمى دائرة لا يتعداها ، ومن العبث أن نتكلم باسـم العلم فى دائرة تسـمو على العلم ، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود • ولن يضير الخلود فى شيء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصـار له ، فانه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع • ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الأرض فى بيانه ، فانه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم • هو أمر خارج عن عالم الفناء ، وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون ، وما كان لفان أن يدرك ادراكا واضـحا ما يتنافى وطبيعته ، الا أن نعرج الى سماء الخالدين •

٦ـ الحق والقوة

● فكرتان متقابلتان ومتعارضتان ، ويدور الحديث حولهما دون انقطاع ، فيقال ان صوت الحق أقوى وأدوم ، وان القوة ان قدر لها الغلبة حينا ، فان السيادة للحق فى النهاية • وهناك من يعتد بالقوة وحدها ، ومتى توافرت له استهزأ بكل حق ومبدأ ، وعد قوته مبررا لكل تصرف يأتيه • والنزاع بين الحق والقوة قديم قدم الانسان ، ولا يزال يتردد دون انقطاع ، سواء فى علاقات الأفراد أو فى علاقات الجماعات •

والتقابل بين الحق والقوة مشكلة من مشاكل الفلسفة السياسية منذ أفلاطون الى اليوم ، فهى مشكلة الماضى والحاضر ، ويخيل الى أنها ستبقى مشكلة المستقبل الى النهاية • وكأنى بالحق والقوة ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يتهادنان ، يقدر لأحدهما الغلب ثم لا يلبث الآخر أن يعدو عليه وينتزع منه سلطته ، وما تنازعهما الا صراع بين الروحية والمادية ، بين المثالية والواقعية ، بين الانسانية والوحشية ، بين الحضارة والهمجية • ولن أكون فى

حديثي هذا المشرع الذى يعنى بالقوانين وصوغها وبيان ما فيها من عقوبات وقصـــاص تحـول دون عدوان المعتدين وظـلم الظالمين ، ولا السياسى الذى يقدم الحلول المختلفة للمشاكل الدولية الهامة . وانما سأعرض لموضوع الحق والقوة من ناحيته الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية ، فأبين كيف نشأت الفكرتان وكيف تطورتا وماذا كان لهما من أثر فى حياة المجتمع ، ثم أشـير الى أوجه التقـابل بينهما وموقف الفلاسفة والأخلاقيين منهما .

نشأة فكرة القـوة :

ليس من الســهل أن نحدد بالدقة كيف اتجه الانسان الأول نحو فكرة القوة ، أفاده اليها حسه وبصره وسمعه ولمسه ، أم هداه اليها شعوره وقلبه وعزمه وارادته ؟ وبعبارة أخـرى هل تبينا القوة لأول مرة فى أنفسنا أو فى الظواهر الطبيعية المحيطة بنا ؟ وهل هى من أصل سيكولوجى أو من مصدر طبيعى ؟ وهل هى وليدة العالم الداخلى أو الخارجى ؟ وأغلب الظن أنها نتيجة هذين الجانبين وثمرة هذين المؤثرين ، فأدركنا القوى الطبيعية وقوتنا الانسانية فى الوقت الذى اصـطدمت فيه الطبيعة بنـا واصطدمنا بها . وكيفما كان أمر هذه النشأة فان الانسـان سلم من قديم بوجـود قوى فى الـكون متعددة : طبيعية وانسانية ، مادية وروحية ، ظاهرة وخفية ، سماوية وأرضـــية . فاذا ما سألته عن حقيقة هذه القوى عز عليه كشفها ،

وصعب عليه تحديدها ، وجل ما تحظى به منه أن يعرفها بآثارها ويتعرفها بنتائجها ، فيقول انها ما يتم به التغير •

القوة والظواهر الطبيعية :

بيد أنه على الرغم من كل هذا لم يتردد الفلاسفة فى أن يتبنوا هذه الفكرة الغامضة فى نشأتها والخفية فى مدلولها ، وكان لابد لهم أن يفعلوا ما داموا يدرسون التغير وعلله ، ان فى عالم الطبيعة أو فى عالم الانسان ـ فنرى الرواقيين فى التاريخ القديم ينتهون الى مذهب ديناميكى شبيه بذلك المذهب الذى صعد به ليبنتز الى القمة فى القرن السابع عشر • ويتصورون أن العالم كائن حى مشتمل على النار والحرارة التى هى المبدأ الفعال المؤثر فى المواد والأجسام المنفعلة ، ولا كيان للمادة الا بواسطة ذلك « النفس الحار » (الأبنيما) الذى يضم أجزاءها ويدفعها الى الحركة والتغير ، فقوة العالم كامنة فيه تسيره على نظام ثابت وتخضعه لقوانين معينة • وان فكرة المادة والصورة التى قال بها أرسطو ولم يوضحها تمام التوضيح ولدت فى القرون الوسطى تلك القوى الخفية والخواص الكامنة التى هى مصدر التغيرات الكونية والأحداث الانسانية ، وان كان وراءها قوة عظمى ، هى قوة القوى وعلة العلل• واذا كان لبيكون وديكارت رسالة جديدة فى التاريخ الحديث ازاء المسائل الطبيعية ، فهى أنهما حاولا محاربة الصفات الغامضة والصور

الخفية التى رددها المدرسيون • على أن بيكون لم يسلم تماما من آثار تلك الفلسفة المدرسية ، وبدا فى بحثه التجريبى وكأنه ينقب عن أمور ذاتية وصفات أولية للأشياء هى سر تميزها وتغيرها ، وفكرة الحركة والتدافع التى ذهب اليها ديكارت ترد التغير فى آخر تحليل الى قوة وحيدة ، الى البارىء جل شأنه • ولعل هذا هو الذى قاد ليبنتز الى نظرية « المناد » والذرات الروحية ، فكان يتصور الأجسام كلها فى صورة معنوية أبلغ مما ذهب اليه الرواقيون ، ويتوهم أنها مجموعة ذرات روحية فيها قدر من النشاط والادراك يتفاوت على حسب مرتبتها ، وقد أبدعها ونسقها اله هو روح الأرواح ومناد المنادات ، واذا كان مرجع التغير كله الى الله فلم نبحث عن قوى وأسباب أخرى سواه ؟ والأجدر بنا أن نرد كل شىء اليه سواء أكان من الظواهر الطبيعية أم الأعمال الانسانية • وهكذا رأى مالبرانش وباركلى أن يردا القوى الظاهرية كلها الى الله ، وقررا أن ليس ثمة قوة فى نظرهما غير تلك القوة الوحيدة •

القوة والمجتمع :

هذا هو شأن القوة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية ، وليس شأنها بأقل خطرا فيما يتعلق بالأحداث الانسانية ، فقد دالت بسببها دول وقامت أخرى ، وذل جبابرة وعز آخرون • وللقوة فى المجتمع

مظاهر متعددة . فهنـاك القوة المادية والجسـمية ، والى جانبها القوة الصناعية والانتاجية ، ثم قوة المال والفكر والعبقرية ، وأخيرا قوة العزيمة الماضـية وارادة الشـعوب التى بدلت صـفحات التاريخ . ولا نظننا فى حاجة أن نلاحظ أنه اذا كانت قوة الأفراد والطغاة هى التى سادت العالم بالأمس ، فان ارادة الشـعوب حلت محلهـا ، بل كانت أحيـانا أشـد أثرا وأعظم انتـاجا . ومن هذه القوة الشعبية تولدت الحركات الدسـتورية ، وبواسـطتها تأيدت النهضـات الاستقلالية ، وعنها صـدرت قوة الطوائف والنقابات والأحزاب . واذا ما تتبعنا الفلاسـفة السياسـيين فى مراحل التاريخ المختلفة ، وجدنا أنهم انما حاولوا أن ينظموا القوى المتباينة أو عولوا على قوة دون سواها . فأفلاطون قديما أخذ نفسه بالتوفيق بين قوى المجتمع المتباينة : بين حراس المدينة من جانب ، والمنتجين من صناع وزراع من جانب آخـر ، والحكام والقضـاة من جانب ثالث ، فأراد التوفيق فى اختصـار بين الشـجاعة والمنفعة الذاتية والعقل . ومكيافيلى فى عصر النهضـة أو هوبس فى أوائل التاريخ الحديث ، ونيتشـه بين المعاصرين انما ناصروا قوة الفرد وأيدوا الحكومة المستبدة ظنا منهم أنها الوسيلة الناجحة لحكم الجماهير . أما لوك وفولتير وروسو ، فقد اعتدوا بقوة الشعب كل الاعتداد ، ووضـعوا دعائم النظم الدستورية والنيابية الحديثة . والى جانب هؤلاء وهؤلاء نجد جورج واشنطون ومازينى وسعد زغلول على رأس النهضات الاسـتقلالية ، كما نجد

كارل ماركس يصور قوة اليد العاملة فى أوضح صورها ، ويعلن حقوقها ازاء أصحاب رءوس الأموال •

فى هذه النهضات على اختلافها والثورات على تنوعها ما يشهد بما للقوة من أثر فى حياة المجتمع ، بل نستطيع أن نقول إن المجتمع الانسانى مجموعة قوى متعددة ، متعاونة أحيانا ومتعارضة أحيانا أخرى • وسعادة الأمة فى أن توجه هذه القوى فى وجهاتها الملائمة، وأن تتضافر على غرض أسمى • وأى نظام اجتماعى لا ينمو ولا يطرد ، بل لا يحيا ولا يثبت ، الا ان كانت وراءه قوى مادية وروحية تغذيه وتعاونه •

فكرة الحق :

ليست فكرة الحق بأجلى من فكرة القوة ، وليست الحقوق الفردية والاجتماعية من الوضوح بحيث تستلفت النظر كالقوى الطبيعية والانسانية • ومن المحقق أن المجتمعات الهمجية خضعت لسلطان القوة وانقادت لعوامل اليأس والشدة قبل أن تعرف لغة الحق والقانون ، ولم تتكون لديها فكرة عن الحقوق واحترامها والتعهدات والتزامها ، الا بعد أن خطت خطوات فى سبيل الحضارة والمدينة • ولعلها لم تعترف أول الأمر ببعض الحقوق الا لأنها وأن القوة تلزمها بالاعتراف بها ، ثم لم يلبث هذا الاعتراف القهرى أن

تحول الى شعور باطنى اختيارى يدفعها الى القيام ببعض الأعمال راحة للنفس ومرضاة للضمير • ففكرة الحق اذن بطيئة التكوين ، والحقوق الانسانية لم تثبت ولم تنضج الا بعد عدة أجيال وحضارات متعاقبة ، على أنها لا تزال حتى اليوم خاضعة لسنة النشوء والارتقاء ، ولا تزال طائفة منها مختلفا عليها بين الأفراد والجماعات •

نشأتها :

ويظهر أن الحقوق فى تطورها مرت بأدوار مختلفة ، فكانت فى أول أمرها دينية شعبية ، وشكلية مادية مقصورة على فريق من الناس • فلا حق الا ما أحقته الآلهة ، ولا التزام الا بما أوجبته التعاليم الدينية ، والحقوق فى جملتها فريضة فرضتها السماء وطاعة أعد لمؤديها الثواب المقيم ولتاركها العذاب الأليم • فمن القساوسة ورجال الدين تعلمت الجماعات الأولى بعض الحقوق ، واليها لجأت فى اقامة شعائرها والمطالبة بأدائها ، ولهذا لم يكن ثمة فرق فى الشرائع القديمة بين أمر دينى وآخر دنيوى ، وانما الأوامر كلها وحى الآلهة ، وترجمة لارادة عليا يقف البشر أمامها خاشعين خاضعين •• هذا الى أن الحقوق كانت فى بدء نشأتها شعبية طائفية ، فعرفت حقوق الأسرة والقبيلة قبل أن تعرف حقوق الفرد مهما كانت منزلته ، وكثيرا ما ضحى به فى سبيل قومه وعشيرته دون ذنب أو جريرة ، فما كانت له شخصية معروفة ولا وجود مستقل محترم • واذا كانت الحقوق قديما مظهرا من مظاهر الحياة الدينية ، فلا بد أن

تؤدى على شكل معين وصورة ثابتة ، شأنها فى هذا شأن الطقوس المختلفة والعبادات المعروفة • وما كانت القبائل الهمجية تفهم من الحق الا مظهره الخارجى ، وجانبه المادى فلم يكن هناك حق معنوى ولا التزام روحى • ولا يمكننا أن نتوقع فى تلك البيئات المحدودة والقبائل المتخاصمة حقوقا تشمل الأفراد على اختلافهم ، بل لأبناء القبيلة الواحدة حقوق لا يمكن أن يقاسمهم فيها أبناء القبيلة الأخرى، ومازلنا حتى اليوم نفرق بين الأجنبى والوطنى فى بعض الحقوق والواجبات •

تطـــورها :

غير أن الحقوق الانسانية لم تقف عند هذه المظاهر الأولى ، بل تطورت وتدرجت ، فتولد الى جانب الحقوق الدينيـــة حقـوق أخرى مدنية ، وأخـذت العادات والتقاليد تنزل من النفوس منزلة التعاليم الدينية ، وصيغت فى قالب أوامر وقوانين محترمة ، ورأينا الفرد يبرز بجانب الشعب والقبيلة ، فعرفت شـخصيته واحترمت حقوقه ، ومن أهم مميزات حضـارتنا الحاضرة احترام الشخصـية الانسـانية وتقديس ما لهـا من حقوق • ومن آثار هذا التطور أن تجردت الحقوق من قيودها الشكلية ومظاهرها المـادية ، فنشـأت حقوق معنوية وروحيـة تمتاز كل الامتياز من الحقوق الشخصـية

والعينية ، وأضحى الانسان ، وكلمته حجة ، وتعهده وثيقة لا تقبل النقض • وانتهت الانسانيـة أخيرا الى طائفـة من الحقوق يتساوى فيها الجميع ، ولا يفرق فيها بين صغير وكبير ، ولا بين أمير وحقير ، ولا بين أجنبي ووطني ، هي حقوق الانسان كيفما كان أصله ومنبته، ومستواه الاجتماعي وجنسيته •

ولم يتم هذا التطور عفوا ولم تتنوع هذه الحقوق اعتبـاطا ، وانما أثرت فيها عوامل مختلفة وساعدت على نموها واطرادها أسباب شـتى • فغرست الديانات بذورها الأولى ، ولولا الدين ما عرفت القبائل الهمجية حقا ولا احترمت مبدأ • وفي تشعب الحياة السياسية والاقتصـادية ما قضى بتنوع الحقوق وازديادها ، فالنظم الدستورية تعترف للأفراد بحقوق ، ما كانت تسلم بها الحكومات الاستبدادية ، وكثيرا ما طالبت الجماعات بحقوق تحميها من ظلم الظالمين وعدوان المعتدين ، والأجهزة والآلات فرضت للعمال على أصحاب المصانع ورءوس الأموال حقوقا ما كانوا يطالبون بها من قبل ، وكلما امتدت وسائل الحضارة في بيئة كثرت فيها الحقوق ، وتعددت المسئوليات • وليست الحقوق في رقيهـا وتطورها بخاضـعة لعوامل اجتماعية فحسب ، بل للفـرد في هذا التطور دخل كبير ، فكثير من الحقوق لم يسلم به الا بعد أن دافع عنه وناضل في سبيله أفراد متعاقبون ، وكم أدخـل العلماء والباحثون على فكرة الحق من تهذيب وتنقيح ما كان للجماهير أن تصل اليهما •

النظرية المثالية :

أظننا ، بعد أن عرضنا للحقوق فى نشأتها وتطورها ، نستطيع أن نفصل فى تلك الخصومة المشهورة المتصلة بأصل فكرة الحق وطبيعتها ـ والأخلاقيون ، كدأبهم فى المسائل العامة والقضايا الكلية ، ازاء هذه المشكلة فريقان : فريق مثالى ينظر الى الحقائق من حيث هى ، ويصورها بصورها العليا سواء أطابقت الواقع أم لم تطابقه ، وفريق آخر واقعى يعتد بالأمور الملموسة ولا يعول الا على الحس والتجربة ـ ويرى الفريق الأول أن الانسان من حيث هو انسان يستلزم طائفة من الحقوق ثابتة على اختلاف العصور والأزمنة ، لا تخضع لبيئة ولا لمجتمع ، فهى حقوق أقرها العقل واقتضتها الطبيعة دون أن تتقيد بالحياة الاجتماعية أو تتأثر بها ـ وأما الفريق الثانى فيذهب الى أن فكرة الحق مكتسبة لم تصل الى كمالها الا بعد أن مرت بعدة أدوار وتأثرت بعوامل مختلفة ، فليس ثمة حقوق مقدسة لذاتها ، ولا مبادىء أقرتها الانسانية بصرف النظر عما يترتب عليها من أثر ، والحقوق الطبيعية المزعومة لا يؤيدها الواقع فى شىء ، واذا شئنا أن نوضح فكرة الحق توضيحا تاما ، فلابد أن نلم بهذين الاتجاهين ، ونلقى نظرة على هاتين النظريتين .

ليست النظرية المثالية حديثة العهد ، فهى ترجع الى القرن السادس عشر ، ويأبى أنصارها الا أن يصعدوا بها الى التاريخ القديم ، فيتلمسوا لها أصولا لدى مشرعى الرومان وبعض فلاسفة

اليونان ، ومضى المدة كان ولا يزال وسيلة من وسائل ترجيح طرف على آخر ـ بيد أنها لم تبد فى ثوبها الكامل الا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لدى كثير من المشرعين والأخــلاقيين ، وفى مقدمتهم الفقيه الهولندى « جروسيوس » والأخـلاقيان الكبيران « روسو وكانط » ـ ثم جاءت الثورة الفرنسـية فأخذت بها وأعلنت حقوق الانسان تطبيقا لها ، وعول عليها نابليون كل التعويل فى وضع قانونه المشــهور . وما ان ظهــر المذهب الواقعى الذى نادى به « أوجست كونت » فى القرن التاسع عشر وأيده فيه علماء الاجتماع الآخــرون حتى أخذت فى التضاؤل والتراجع ، وأصبح الفقهاء الأخلاقيون يشكون فى قيمتها العلمية .

وتتلخص هذه النظرية فى أن العقل الانسانى يقضى بطائفة من الحقوق أقرها الناس أو لم يقروها ، فهى ثابتة للأفراد على السواء، ولا تسقط بمضى المدة ، ومحاربتهـا فى جيل من الأجيال لا تقوم دليلا على بطلانها ، كبعض الفضائل السامية التى لم يستطع أفراد بيئة ما التحلى بها . وهذه الحقوق ، فوق أنها عقلية ، طبيعية أيضا ، فهى ثمرة من ثمار الطبيعة الانســانية وضرورة من ضروراتها ، ولا يستطيع الانســان أن يؤدى وظائفه الجنسـية والعقلية ويحقق كماله المنشود بدونها ، ومن هنا جاء هذا التعبير المشـهور : « الحق الطبعى » الذى يعتبر عنوان النظرية المثالية . واذن الحق فكرة لا أمر وجودى ، ومبدأ عقلى لا ظاهرة واقعيـة ، والظواهر الواقعيـة على

اختلافها ما كانت لتصل الى تصوير الحقوق بهذه الصورة المثلى • وقد يسلم بعض المثاليين بوجود حقوق مكتسبة ، ولكنها تختلف عن الحقوق الطبيعية كل الاختلاف ، ولا تسمى حقوقا الا بضرب من التوسع والمجاز ، والفرق بين الحق الطبيعى والمكتسب هو أن الأول مصحوبة دائما بعاطفة داخلية وشعور باطنى يقدسه ويحترمه ، وتجمع العقول السليمة على التسليم به •

لا نزاع فى أن هذه النظرية المثالية تصعد بفكرة الحق الى مستوى المبادىء الثابتة والحقائق المسلمة ، وتريد أن تقول ان الحق لم يكن حقا لمجرد أن العرف رآه كذلك ، بل لأن العقل والطبيعة استوجبا أحقيته ، ولا نزاع أيضا فى أن المثاليين بوجه عام يذهبون الى أن الحق والخير والفضيلة ذات قيم ذاتية قدسها من أجلها الناس، وكل ذلك اعتداد بفكرة الحق وتدعيم لها على أساس عقلى لا نتردد فى أن نقدره ونجله • غير أن هؤلاء المثاليين يتناسون الواقع والتاريخ ، ويغفلون كل التطورات التى مرت بها الحقوق الانسانية ، ولا ينظرون اليها الا فى مرحلة كمالها ، ويزعمون أن الحقوق كلها نشأت على هذه الصورة • مع أن حقوق الانسان لم يعترف بها الا بعد أجيال وثورات عديدة ، ولا تزال حتى اليوم محل أخذ ورد ، والحقوق الطبيعية ليست من الجلاء والوضوح بالدرجة التى يتصورها بها أنصارها ، فانا لا نعرف حقا كانت الطبيعة وحدها مبعثه • وفوق هذا فكرة الحق مصحوبة بشىء من الحرمة والتقديس

لا تستطيع النظرية المثالية أن تفسره ، فهنـاك حقوق نرى من الاثم الكبير أن نخل بها أو نعدو عليها ، وما ذاك الا لأن التعاليم الدينيـة أحاطتها بسياج من الجلال والرهبـة • وفى اختصـار ، لئن كان المثاليون قد تلمسـوا فى بعض الحقوق أسـبابا عقلية وطبيعية تؤذن بأحقيتها ، فليس معنى هذا أن هذه الحقوق انما استمدت من العقل والطبيعة •

النظرية الواقعية :

لذلك أحسن الواقعيون كل الاحسـان فى دراستهم للحقوق دراسـة تاريخيـة وتتبعهم لنشـأتها وتطورها • والنظرية الواقعية أشبه ما يكون برد فعل للنظرية المثالية ، نبتت فى القرن السادس عشر ، ثم نمت نموا عظيما فى القرن الثامن عشر بفضل جهود بعض المشرعين والأخلاقيين ، وبلغت أوجها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • والواقعيون فى الحقيقة قسمان : قسم يرد الحقوق كلهـا الى أصـــل من المنفعة العامة ، ويرى أنها لم تنشأ ولم تتكون الا تحت تأثير هذه المنفعة ، ويذهب القسم الآخر الى أن الحق وليد القوة ، نشـأ فى كنفها وتربى على حسابها ، ولولا القوة ما عرفت الحقوق ولا سلم بها •

وربما كان مشرعو القرن الثامن عشر وفلاسفته أول من بنى فكرة الحق على أسـاس من المنفعة العامة ، وفى مقدمتهم الاخلاقى

الانجليزى بنتام ، والفيلسوف الفرنسى هلفسيوس . ثم جاء واقعيو القرن التاسع عشر عامة ورجال المدرسة الفرنسية خاصة ، فساروا فى هذا الاتجـاه وأيدوه كـل التأييـد . فنـرى فى انجلترة جون استورث مل واسبنسر ، وفى ألمانيا جيرنج ، وفى فرنسـا الفقيه الشهير ديجى ، وكل هؤلاء يلتقون فى نقطة واحدة ، وهى أن الحقوق أثر من آثار الحياة الاجتماعية ، ولولا المجتمع ما عرف حق ولا قدس واجب . فالحقوق اذن تتغير من بيئة الى أخـرى ، وتخضع لمختلف العوامل الاقتصادية والسياسـية والدينية . واذا كانت المصلحة الذاتية تدفع بعض الأفراد الى التشبث ببعض الحقوق والمطالبة بها ، فان المصلحة العامة هى الحكم فى كل هذه الشئون ، والشرائع الراقية تتخذ من هذه المصـلحة الدعامة لـكل القوانين ، فلا حق الا ما طابقها وجاء موافقـا لمقتضياتهـا ، واذا كان أنصـار النظرية المثالية يعتدون بالفرد وحقوقه ، فان هذه الحقوق لم تعرف الا عن طريق المجتمع ، وقد سـبق لنـا أن أشرنا الى أن الحقوق لم تعرف الا عن طريق المجتمع ، والى أنهـا أول أمرها كانت شـعبية طائفية ، ثم تطورت على مر الزمان وظهرت حقوق الأفـراد بجانب حقوق الهيئات والجماعات .

لقد نجح هؤلاء الواقعيون فى تفسـير الحقوق فى ضوء الحاضر والماضى ، وربطوا فكرة الحق بالمجتمع ، فأصـبحت ذات وجـود خارجى ، وبهذا أمكنهم أن يحللوها ويميزوها ببعض الخصائص .

ولا نستطيع فى العصر الحاضر بوجه خاص أن ننكر ما للمنفعة العامة واعتبارها من أثر فى الحياة الاجتماعية ، ولـكن رد الحقوق كلهـا اليها يتنافى مع الواقع ، فهناك حقوق عمرت طويلا ودان الناس بها مع مخالفتها الصريحـة لها . على أن النظم الاجتماعيـة لا تخضع لموازنة منظمة بين المنافع المختلفة ، وفكرة المنفعة نفسها غامضة غير قابلة للتحديد فى يسر ، وقد فشلت فى توضيح فكرة الخير والشر، ولن تكون أعظم نجاحا فى تدعيم فكرة الحق . ومن الغريب أن أنصار هذه المنفعة العامة هم الذين يقولون ان حب الذات غريزة أولية ، فى حين أن حب الغير غريزة ثانوية ، فكيف تستطيع هذه الغريزة الثانوية أن تكون الحقوق وتتغلب على الغريزة الأولى ؟ ومهما يكن من أمر هذا التناقص ، فان هؤلاء المنفعيين وفقوا كل التوفيق فى ربط الحقوق بحياة المجتمع ، وعدها ظاهرة من الظواهر تخضع لكل ما يطرأ عليه من عوامل ومؤثرات .

فى الاجتماع

١ - الخرافة

● الخرافة حليفة الجهل ، وأليفة الأوهام ، عنـــوان ناقصى الثقافة ، ورمز ذوى العقول الضعيفة ، كالحشرات الدنيئة ، لا يحلو لها العيش الا فى الأماكن المظلمة ، أو كالحشائش الضارة ، لا يعظم نموها الا فى التربة الفاســدة ـ تقف فى طريق الحق ، وتقاوم كل تفكير • وكأنها ذات قوة سحرية تغشى الأبصــار ، وتصــم الآذان ، وتقضى على كل ما فى المرء من عقل وروية ، أو كأنها مظهر لوحى خفى يســتولى على النفوس والأفئدة • وكيف لا والســحر خرافة لبست ثوب الفن ؟ والخرافات فى أغلبها اكتست بكســـاء الدين • لذلك لبى نداءها معتنقوها ، ونزل عند ارادتهـــا من آمن بهـــا ، ولو أدى ذلك الى ارتكاب جرائم شــنيعة ، وازهاق أرواح بريئة ، وتبديد ثروات طائلة • وكم باعدت الخرافة بين الصديق وصديقه ، والمرء وزوجـــه ، والأخ وأخيــه ، والابن وأبيــه • وقد لا يقف عدوانها عند الأحياء ، بل يتعداهم الى الأموات ، فخربت من جرائها قبور ، وانتهكت حرمات • وبذا كانت من أشد أخطار الانســانية ،

وأكبر أعداء الحضـــارة والمدنيـــة . وما أصـــدق مونتســـكيـه (Montesquieu) حين يقول : « أعد نفسى أسعد الأحياء اذا استطعت أن أبرىء الناس من خرافاتهم (١) » .

بيد أن الخرافة ليست شراً كلها ، ففى حجرها درج العلم ، وتحت كنفها نمـا كثير من النظم الاجتماعية . والعلوم فى نشـــأتها كانت سـلسلة خرافات متصـــلة ، وطائفـة غير ملتئمة من الظنون والأوهام ، وما الكيمياء الحقيقية الا وليدة الكيميـاء الخرافيـة (٢) وما الفلك فى قواعده وأصـــوله الا ربيب العرافة والتنجيم ، وما الطب الا نتيجة وصـــفات بلدية هذبت ، وتجـارب عادية سلك بها سـبيل البحث والتمحيص (٣) ، وما طبيعة اليوم المملوءة بالمبادىء والقوانين الا الثمرة الناضـجة للآراء الخاطئـة المشـحونة بالأوهام والخزعبلات ، والتى أدلى بها فلاسـفة الاغريق الأول أمثال طاليس وأنكسمندر (٤) . والحكومة فى سلطانهـا ، والأسرة فى نظامها ، والملكية فى احترامها مدينة للخرافة الى حد كبير : فالملك مسموع الكلمة مطاع الأمر ، لأن الخرافة شاءت قديماً أن تضعه فى صف

---

(١) Citté dans la Tâche de psyché, XI.

(٢) Pattison, The Story of Alchemy and the Beginning of Chemistry, London, 1902 .

(٣) Hesse et Gleyze, Notions de sociologie, p. 252 et s.

(٤) Rey, La jeunesse de la science grecque, p. 19 et suiv.

الآلهة والأرباب ، والزواج محترم لأن الزنا والفسوق ما كانت لتغضب الله والناس فقط ، بل ربما استتبعت هلاك الحرث والنسل وخراب القرى والأمصار ، والملكية مقدسة لأن الاعتداء عليها كان يثير غضب المردة والشياطين والقوى الخفية المتصرفة فى هذا العالم (١) . واذا بحثنا عن منشأ كثير من عاداتنا الاجتماعية وجدناها ترجع الى أصل خرافي : فتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى يفسر في غالب الظن مبدأ من مبادئ السحر والشعوذة ، والعطلة الأسبوعية التى ننعم بها الآن لم تكن الا لأن الانسان اعتقد أن هناك أوقات نحس وأوقات سعادة (٢) . وفوق هذا وذاك تغذي الخرافة ناحية نفسية لا يصح تجاهلها ، ذلك لأن الانسان لايلبى داعية العقل والمنطق فقط ، بل هو خاضع لخياله وعواطفه . وللمخيلة ميادين تسبح فيها ، وعالم يتفق مع ميولها وأهوائها ، وما الخرافة الا مظهر من مظاهر هذا العالم وأثر من آثار هذا الصنع . وحياة لا تعتمد الا على الأسس الطبيعية والبراهين العقلية ــ كما ينادى بها أصحاب الرواق ــ جافة قطعا ، ولا وجود لها الا فى أدمغة أمثال زينون وكريزيب .

(١) Frazer, La Tache de psyché, Paris, 1914.

(٢) Encyc. Britannica, XIV, etd., t. 21, p. 578.

شيوعها :

ليس هناك شك فى أن الانسان مستعد بطبعه لقبول الخرافة ، فهو ميال دائماً لأن يعرف أكثر مما يرشده اليه بصره وعقله ، ولأن يخلق بجانب الحقائق الحسية والفكرية صوراً أخرى تحقق رغبة من رغباته ، أو تسد ناحية من نواحي نقصه (١) • هذا الى أنه في ضعفه يحاول أن يعتز بقوى خفية ــ وان تكن خيالية ــ فى التغلب على مشاق الحياة • ومن هنا كان التعلق بالخرافات عالمياً ، وكان قدر منها مشتركا لدى عامة الشعوب • فالسحر والتنجيم والشعوذة من خرافات الانسانية بأسرها ، قام عليها معظم تقاليد الأمم المتوحشة ، وتشبث بها الناس بعد أن خطوا خطوات فسيحة فى سبيل العلم والمدنية ، ولا يزالون خاضعين لشيء من سلطانها الى اليوم • وحديث القصور الزبرجدية والأرائك العسجدية التى بناها المردة والشياطين فى أرض نائية وجزر منقطعة ، بهر الانسان الهمجي وشغل عقول بعض أبناء القرن العشرين (٢) • والتفاؤل والتشاؤم والطيرة كانت من خرافات الاغريق والرومان والعرب ، وحتى الساعة يقول عامتنا : « خذوا فالكم من قبالكم » ، واذا سمعوا نعيق غراب رددوا الجملة المشهورة : « اللهم اجعله خيراً » • وبديهى أن انتشار الخرافة يختلف من بلد لآخر ، تبعاً لدرجة الثقافة ، ونمو

(١) Encyc. of Religion and Ethics, vol. 12, p. 122.

(٢) Larousse, Superstition.

التربية الدينية ، وطرق الحكم السياسية من ديمقراطية واستبدادية، ولظروف اجتماعية أخرى متعـددة • ويحاول بعض الباحثين أن يعقد موازنات بين الأمم في هذا المضمار ، فيزعم مثلا أن المشـاهد السينمائية في انجلترا وفرنسـا تؤذن بأن الشـعب الانجليزى الى الغريب أميـل ، وفى الخرافـة أرغب • وهذه الموزانات وان تـكن مثار شك كبير ، ربما وصـلت الى نتائج شيـقة ان عنى بضبطهـا وصحتها •

واذا كنـا نتحدث عن الأفـراد والشـعوب واسـتعدادهم لقبول الخرافة ، فيجدر بنا أن نشـير الى ملاحظة هامة ، وهى أنه لا يوجد شـخص ينكر الخرافـة التى يعتنقها ، فى حين أنه متيقظ دائما الى خرافات الآخرين • وقد يصل بنا الأمر أن نقيس الشيء الواحد بمقياسين مختلفين ، وننظر اليه بمنظارين متباينين ، فان كان مما عرفناه وألفناه أضحى دينا وعقيدة ، وان اتصل بتقاليد غريبة عنا استنكرناه وتبينا ما فيـه من تضليل وتخريف : وكأن ما هو دين فى رأيك خرافة فى رأى غيرك ، وبالعكس (١) • ولعل ذلك راجع الى أن الخرافـة تسلب معتنقها قوة النقد والحـكم الصحيح ، هذا الى أنها نسبية وصعبة التحديد : فما كان عقيدة بالأمس أصبح خرافة اليوم ، « وما هو صـواب شرق جبال البرانس يعد خطأ غربهـا » ،

---

(١) Encyc. of Religion, vol. 12, p. 120.

ومقياس الخرافـة ـ كمقياس الحق والبـاطل ـ يتغير بتغير الظروف والأزمنه •

تعريفها :

يعز علينـا حقيقة أن نعرف الخرافـة تعريفا شـــاملا ، وأن نضع لها حدا ثابتـا • فلا يمكننـا أن نقول انهـا كل ما خالف العلم الصحيح ، فان هذا العلم نفسه لما يحـدد تمـاما ؟ على أنه قد يؤيد أموراً يصعب علينا أن نخرج بهـا عن دائرة الخرافة • فـكثير من المثقفين يؤمن اليوم بتحضـير الأرواح ، ويجتهـد فى أن يفسره تفسـيراً علميـاً • ولا نســتطيع أن نقول ان الخرافة كل ما ناقض الدين ، فان هناك أشياء اكتست بكسـاء دينى كامل فى حين أنها خرافة صريحة • وفى شيء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة كل فكرة أو عقيدة فردية أو جماعية تفسر ظواهر العالم على نحو لا يلتئم مع العقل ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة • ولعل فى سرد بعض الأمثلة ما يعيننا على تفهم الخرافة فى حقيقتها ومدلولها • من ذلك أن بعض الأوربيين يرى أن كب الملـح نذير ســوء ، وأن اجتماع ثلاثة عشر شخصاً على مائدة واحدة مؤذن بأن واحدا منهم سيموت فى العام نفسه ، وأن تقديم السـكين يقطع المودة ، وأن وضع المكنسة فى المـاء مجلبة للمطر • وخرافاتنا المصرية التى هى ميدان فسيح للدراسـة غير متناهية العدد ، ومن أشـــهرها حديث « الشمامة » ورعراع أيوب وأكل البصل أيام شم النسيم ، وصناعة

التبخير أو « الزار » والرقى والتعاويذ • وعبثاً نحاول ان شئنا أن نأتي هنا على مختلف الخرافات العالمية أو المصرية • وفي مقدورنا أن نلاحظ بوجـه عام أن الخرافات تـكاد تتمركز حـول نقطتين هامتين : المعتقدات والعبادات الدينيـة ، وهذا ما سـمـاه الألمـان (Aberglaube)

درسها :

لقد شغل الباحثون بالخرافة منذ زمن بعيد ؛ فبينوا مضـارها السياسية والدينيـة والاجتمـاعية ، وعملوا على احصـاء الخرافات المتعددة واثباتهـا في قواميس خاصـة نذكـر من بينهـا le dictionnaire infernal ، وقسـموها الى فصـول وأنواع مختلفـة (١) ، ومن أقـدم من كتبـوا في هـذا البـاب لكريس (Lucrère + 51 av-j-c) وفلوطرخس (Plutarque + 123) والأخير بوجه خاص هو أول باحث درس الخرافة في شيء من التوسع ونقدها نقداً مراً ، وربما كان متـأثراً في ذلك بما سـاد عصره من خرافات لاحصر لها (٢) • الا أن الفضل في دراسة الخرافة دراسة علمية منظمة يرجع الى علماء الاجتماع المحدثين الذى تولوها بالشرح والتحليل • فبحثوا عن أصـلها ، وسبيل انتشـارها ، وأثرها في المجتمع ، وطريق علاجها • وكان لهم في ذلك مؤلفات قيمة جذابة

(١) Plutarque, De Superstition.

(٢) La Grande Encyc., t. 30, p. 717.

نخص بالذكر منها كتاب فريزر (١) الذى سنعرض له بالتفصيل •

اذا تصفحنا التاريخ وجدنا الانسانية نشأت حاملة معها خرافاتها • فالأمم المتوحشة الأولى خضعت للخرافة خضوعها لدين ثابت وأصل مقرر ؛ ولا زلنا نرى أثر هذا الخضوع لدى القبائل الهمجية المعاصرة • واذا جاوزنا هذه الأمم الى الشعوب التى أخذت من الحضارة بنصيب ، لاحظنا أنها تعلقت بقسط وافر من الأوهام والخزعبلات • وخرافات قدماء المصريين أعرف من أن ينوه عنها • والاغريق الذى بهروا العالم بعلمهم وثقافتهم لم يكونوا أقل اعتناقاً للخرافة من غيرهم ، وتاريخهم الدينى مجموعة خرافات سخر منها فلاسفتهم غير مرة • وربما كان اللا أدريون (les sceptiques) من أول من رفع الصوت جهرة فى وجه الخرافة والانقياد الأعمى لها ، ودعا الى تحرير الفكر الانسانى (٢) • كذلك حاربت الديانات السماوية بعض الخرافات وقضت عليها • غير أن رجال القرون الوسطى عادوا ــ تحت تأثير الجهل وعاطفة دينية عمياء ــ فارتطموا فى بؤرة الخرافة ، وتفننوا فيها أيما تفنن • ثم جاء عصر النهضة والاصلاح الدينى فسلكا بالعقل الانسانى مسلكا جديدا ، وأثارا على الخرافة حرباً شعواء • ولا تزال العلوم الحديثة تنكل بها يوماً بعد يوم ، وتطاردها فى كل مكان •

---

(١) Frazer, L'avocat du diable ou la tâche de psyché, tr. fr., Paris, 1914.

(٢) Bevan, Stoics and Sceptics, London, 1913.

مصيرها :

والآن يحق لنا أن نتساءل هل الخرافة في سبيل الانقراض ؟ وهل تأمل الانسانية أن تتخلص منها بتاتاً ؟ ليس يسير أن نجيب اجابة شافية عن السؤال الأول ، فان الاحصاءات في هذا الميدان ناقصة وغير دقيقة • والخرافة ، وقد تمكنت من نفوسنا ، أضحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدانا ، وهي صعبة التمييز ، وكثيرا ما بدت بمظهر الشيء المعقول والمسلم به • ولكن مما لاشك فيه أن الفكر الانساني تبرأ من خرافات كثيرة كان يرزح تحت نيرها آباؤنا الأقدمون • وكلما بسط العلم نفوذه بدد غياهب هذه الترهات والأباطيل ، فهو من الخرافة كالنور من الظلمة يكشف دخيلها ويبين ما اشتملت عليه من خطر وأضرار • ومع هذا يخيل الينا أنه لن يتمكن من انتزاع جرثومتها والقضاء عليها تماماً ، وستبقى الخرافة ما بقي الانسان لتسد حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية• وها هي ذي خرافة تفنى لتحل محلها خرافة أخرى ، فلئن بادت الخرافات الوحشية فقد أعقبتها خرافات حضرية • على أنه ليس ثمة ضير ــ على ما يظهر ــ في أن تتعلق أمة من الأمم بقدر محدود من الخرافات ، فان فشت الخرافة وسدت طريق التفكير والحكم الصحيح ، فهنا الداء القاتل والخطر المحدق •

❋ ❋ ❋

وكأني بهذه الحال تنطبق تماماً على ما تعانيه بلادنا اليوم •

فنحن فريسة للخرافة في طعامنا وشرابنا ، في ملبسنا ومسكننا ، في حركاتنا وسكناتنا ، في مختلف عادتنا وتقاليدنا ، بل في آرائنا ومعتقداتنا ، وكثيراً ما وقفت الخرافة عقبة كأداء في طريق تقدمنا العقلي والجسمي ، والخلقي والاجتماعي • وفي رأينا أن خرافاتنا المتفشية ترجع الى أسباب كثيرة أهمها :

١ ـ طريقة الوعظ والارشاد والتربية الدينية الفاسدة •

٢ ـ حياة القهر والاستبداد •

٣ ـ الفقر •

٤ ـ والجهل •

لقد سلكت طائفة من وعاظنا مسلكا خاطئا للغاية ، وأرسلت لنفسها العنان ـ طمعاً في الترغيب أو الترهيب ـ في سرد خرافات يأباها العقل والدين ، وخاصة ما اتصل منها بالحشر والنشر واليوم الآخر ، وعمدتها في ذلك مجموعة ضارة من كتب القصص والتفسير المملوءة بالاسرائيليات والآثار الضعيفة أو المكذوبة • وكأن علم هؤلاء الوعاظ خرافة كله ، أو كأنهم يحيون على حساب الخرافة ، فهم يثبتون دعائمها ويبالغون في نشرها • وليست حياة القهر والاستبداد بأقل أثراً في نشر الخرافة من هذا الوعظ الفاسد ، فالمغلوب على أمره يبحث عن قوى خفية يزعم أنها تعينه على التخلص مما هو فيه • كذلك تمني الخرافة الفقراء بأحلام ذهبية وآمال خلابة،

وتسبغ عليهم من الخيال ما عجزت الحقيقـة عن الوفاء به • ويحرم الجهل أخيراً عامـة الناس من أن يفتحوا أعينهم للضـياء ، وقلوبهم للرجاء ، لذلك كانت الخرافة والجهل توءمين متلازمين ، وأخوين لاينفصلان ، وقديماً قالوا : « الخرافة عمياء تخشى ما تحب ، وتحب ما تخشى » • واذا كنا قد شخصنا الداء فلنعالج أسبابه الدفينة وعوامله الخفية ، وحذار أن نحارب الخرافة وجهاً لوجه ونقتصر على تسـفيه أحلام معتنقها ، فانه قد يكون أيسر أن نصرف الملحد عن الحاده من أن نحول المخرف عن خرافته •

---

٢ - فريزر ودراسة الخرافة

● خطت الدراسات الاجتماعية فى الخمسين سنة الأخيرة خطوات فسيحة : فاتسعت سبلها ، وتعددت فروعها ، وتشعبت مناحيها، واستطاعت أن تثبت أن لها كسائر العلوم ــ موضوعاً محدوداً ، وطرقاً معينة ، ومبادىء ثابتة ــ ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة ؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فنا بأسره فى مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين • فان جملة ما كتبه أفلاطون وأرسطو فى العصور القديمة ، وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافيا فى القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعا بالمعنى الصحيح ، ولا يحوى آراء علمية ناضجة (١) • ولا ننكر أن عصر النهضة ألقى شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولفت الباحثين الى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض ، وقد بدا أثره

(١) Hubert, Les sciences sociales.

الواضـــح فى القرن الثامن عشر ، اذ ظهـرت مؤلفـات مونتيسكييه وفولتير وروســو (١) • ثم جاءت الثورة الفرنســية التى قلبت النظم المألوفة رأســاً على عقب ، واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة العتيقة طرقاً مستحدثة ، فأنتجت بهــذا ثورة أخرى فى الأفـكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت (٢) • بيد أن تكوين علم الاجتماع فى شكله الحاضر يرجع الى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القــرن العشرين • فمدرسة ميل وسبنسر فى انجلترة ، وفونت وفجنر فى ألمانيا ، ودركيم وليفى بريل فى فرنسا، وأعمال السائحين والرحالة من انجليز وأمريكان وألمان أضافت الى هذا العلم ثروة طائلة ، خلقته من عدم (٣) •

لم تقنع هذه المدارس بطريقة واحدة ، ولم تقف فى بحثهــا عند حد • فلجأ بعضها الى التاريخ يشرح به ما غمض من أعمــال المجتمع وأقواله ، واحساساته ، وعقائده • واتخذ بعضها من الاحصاء والتعداد وسيلة لتوضيــح الظواهر الاجتمــاعية واستنتاج القوانين المســيطرة عليها • وأبت طائفة أخرى الا أن تصعد بالاجتماع الى مستوى العلوم الوضعية (sciences positives) ، فبنته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة • لذلك عمدت الى دراســة الشــعوب الهمجية

---

(١) Id., Sociologie, p. 6.

(٢) Maunier (R.), Introd. à la Sociologie, pp. 91-99.

(٣) Külpe, Einleitung in der philosophie, pp. 136-139.

المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها ، وتوصلت من ذلك الى نتائج هامة وشيقة للغاية (١) • ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيا انجليزيان معاصران ، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبا فى خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة •

فريزر :

يضيق بنا المقام عن أن نترجم ترجمة كاملة لفريزر (Frazer) تلميذ جامعة جلسجو ، وأستاذ الاجتماع فى ليفربول وكمبردج ، وأحد رجال القانون والمحاماة فى لندن (٢) • نشأ هذا العالم متشبعا ـ ككل أتباع ميل وسبنسر ـ بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة ؛ وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد اذا درست خصائص الشعوب المختلفة ، لا سيما الهمجى منها • فعلى ضوء هذه الدراسة المقارنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التى مرت بها فكرة من أفكار المجتمع ، وأن نقف على منشأ هذه الفكرة وكيفية تطورها • وقد تخصص فريزر فى هذا النوع من البحث ، وتناوله من نواح شتى فى أسلوب جذاب ، وعبارة عذبة ، وخيال رائع ، ومادة غزيرة تشهد باطلاع واسع وعمق كبير ؛ لهذا يعد اليوم ـ بحق ـ من أكبر العلماء المبرزين

---

(١) Hubert, Sociologie, pp. 130-35.

(٢) Encyc. Brit., t. IX — Larousse, XXe, t. 3.

فى خصائص الشعوب (ethnographes) (١) • ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات فى رسومها وطقوسها لدى الشعوب القديمة والحديثة، وله فى ذلك مؤلفات عديدة أهمها : الطوطميه (Totemism) والغصن الذهبى (The Golden Bough)، ذلك الكتاب العظيم الذى ترجم كله أو أجزاء منه الى الألمانية والفرنسية والايطالية (٢)• وغنى عن البيان أن أبحاثا كهذه تتصل اتصالا وثيقا بالخرافة التى لبست ثوب الدين فى كثير من المجتمعات الانسانية •

نستطيع أن نقول ـ دون أن نخشى أية معارضة ـ ان فريزر كان أستاذاً غير منازع فى موضوع الخرافة ، درسه فى رغبة أكيدة فأجاد درسه ، وقلبه على وجوهه العديدة فلم يدع فيه مجالا لمن جاء بعده • لم يعن بالخرافات المشهورة فحسب ، بل تعداها الى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب ، فهو الى جانب دراسته للسحر والشعوذة وصكوك الغفران وما أشبهها ، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب (٣) • وبالجملة ليس ثمة كتاب من كتبه الا وفيه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع • ولئن كان قد أعلن اعلاناً كافياً عن

---

(١) Encyc. Italiana, t. XVI, pp. 44-45.

(٢) Der Grosse Brockhaus, VI, 554.

(٣) Voir, The Magic Art and the Evolution of Kings, 1911.

مضـار الخرافة وسيئاتها ، فهو لم ينس نفعها وحسناتها ، ولا ريب فى أنه أول اجتماعى أبان فى وضـــوح أثر الخرافة النافـــع فى المجتمعات الانسانية • وقد وضع فى هذا ـ فضلا عن أبحاث جزئية مختلفة ـ كتاباً مستقلا سماه : « محامى الشيطان (١) » •
(L'avocat du diable)

محامى الشيطان :

لهذا الكتـاب من اســـمه نصيب كبير ، فان مؤلفه يبدو فيه المحامى المدره الذى يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال ، ويبين ما لها من يد فى تكوين الأسس الاجتماعية • فرجـل الدفاع فى محاكم لندن يزج بنفسه فى محكمة الآراء والنظريات لينصر فكرة أجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين ، مهمة شاقة ، وموقف دقيق للغاية ، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأى الســائد ، ويخرج على المألوف المسلم به • غير أنه قد وفق الى حد كبير فيما حاوله ، ونهض بالخرافة من كبوتها ، وأثبت ما فيها من نواحى الخير • وما أبلغه حين يقول : « نحن مدفوعون الى اعتبار الخرافة خطأ فى ذاتهـا ، وشراً لا خير فيه ، وضرراً محقق النتائج • وفى الحق أنهـا أصـل كثير من آلام هذا العـالم ، فقد بددت ذخـائر هائلة ، وضحت بأرواح لا حصر لهـا ، وأثارت حروباً شـــعواء ، وأوقعت الشــحناء بين

---

(١) نأسف لأنه لم يكن بين أيدينا النص الانجليزى لهذا الكتاب ، وأحلنا على الترجمة الفرنسية ، وهى جيدة •

الأصـــدقاء ، وفرقت بين المرء وزوجـه ، والأب وابنـه ، مقطعة علاقاتهم بحراب حادة ، أو بما هو أضر منهـا ، وملأت السـجون بالأبرياء ، والمستوصفات والملاجىء بالعجزة والمعتوهين ، وسحقت قلوباً عديدة ، وبلبلت نفوسـاً مطمئنة . ولما لم تقنع بايذاء الأحياء جاوزتهم الى الأموات ، فهتكت سترهم ، ونبشت قبورهم ، وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدمى قلوب الأبنـاء والأعقاب ، صنعت الخرافة كل ذلك وأكثر منه ، بيد أن في مقدورنا أن نقدمها اليكم في صورة أليق ، وتحت ضوء أنسب . لاندعي أنا أهل للدفاع عن هذا « الشيطان » ، والظهور أمام هذا اللهيب الأزرق والغاز الخانق، وانما نحاول فقط أن نكون ما يصـح أن يسـميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن أكبر الخصـوم شـبهة ، سنعمل مستضيئين بأمثلة مختارة على البرهنـة ، أو على الأقل ، على ترجيح هذه القضية : «قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة ، باعتراف الجميع أو أغلب الناس ، على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفي بعض مراحل التاريخ » (١) .

الخرافة والسلطة الحاكمة :

تخير فريزر من بين هذه الأنظمـة أربعـة من أهمها ، وهي الحكومة ، والملكية الشخصية ، والزواج ، واحترام الحياة الانسانية،

---

(١) Frazer, L'avocat du diable, pp. 1-2.

وبذل غاية الجهد فى اثبات أن الخرافة ساعدت على تكوينها ودعمها مستعيناً فى كل ذلك بالواقع والتاريخ • فلاحظ فى دقة أن مهمة الحكومة ذللت لدى كثير من القبائل الهمجية المعاصرة بسبب الرأى القائل ان الحكام ينتسبون الى طبقات سامية ، وينعمون بسلطان سحرى خارق للعادة ، واذ كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون ابداء أية ملاحظة • فلدى سكان جزائر السود (Mélanésie) فى استراليا يزعم الناس أن للرؤساء قوى غير طبيعية استمدوها من الملائكة والجن المتصلة بهم اتصالا وثيقاً • وفى هذا سر نفوذهم ، فمتى ضعفت هذه العقيدة فقد الرئيس كثيراً من سلطانه (١) • ويعتقدون كذلك أن الحاكم أو الوالى يستمر بعد موته فى سهره على رعاياه ، ويعاقبهم بالجدب والغرق والصواعق ان أخطئوا ولم يقدموا القرابين لجدثه (٢) • ويعتبر الرؤساء السياسيون فى زيلندة الجديدة آلهة أحياء مقدسة فى مختلف أجزائها ، بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها ، واذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء ، سارع الى عينيه فاقتلعهما وابتلعهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح وقوى خفية ، ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين العضوين (٣) ويقول بعض الأمراء

---

(١) Codrington, The Melanesians, p. 46.

(٢) Frazer, op. cit., p. 9.

(٣) Taylor, New Zealand and its Inhabitants, pp. 134 ,352.

الزيلنديين : « لا تظن أنى رجل وأنى من هذا العالم الأرضى ، كلا فانى نزلت من السماء حيث يسكن آبائى الآلهة ، وسأعود اليهم يوماً (١) » • ويروون أنه بينما زيلندية تتذوق خوخة جميلة انتزعتها من سلة تحملها ، علمت أنها نبتت فى مكان مقدس ، فأسقط فى يديها وصاحت بالويل والثبور ، وأنها لابد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان المقدس ، وما أصبح الصباح الا وقبضت روحها (٢) • ويعتقد سكان أفريقيا الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم يتصرفون فيها كما يشاءون • وفى مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا الشمس ويخسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء ، لذلك يلجأ الأهلون اليهم ان ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض (٣) •

لم يقف أمر هذه العقائد الخرافية عند القبائل الهمجية الموجودة فى أفريقيا واستراليا وأمريكا ، فقد اعتنقها من قبل الشعوب المتحضرة القديمة • فقدماء المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ويصعدون بهم الى أصل سماوى ، واذا نقصت حاصلاتهم رجعوا ذلك الى غضب المليك عليهم (٤) • وفى قوانين مانى الهندية كتبت العبارة الآتية : « ان الملك بفضل سره الخارق للعادة ، نار

(١) Thomson, The Story of New Zealand, I, p. 95.

(٢) Brown, New Zealand, p. 76.

(٣) Frazer, The Mag'c Art, I, p. 342.

(٤) Ibid., I, p. 418. — Tiele, History of the Egyptian Religion, p. 103.

وهواء ، وشمس وقمر (١) » • وكان اليونان فى عهد هومير يعدون ملوكهم ورؤساءهم آلهة أو كالآلهة (٢) • وما لنا نذهب بعيداً وفى التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات ؟ فقد كان عامة الانجليز يستشفون بملوكهم الى عهد قريب ، فاذا لمس الملك مريضهم برىء لساعته ، واستمرت هذه الخرافة الى أخريات القرن الثامن عشر ، اذ كان يعالج روبير الصالح ، وادوارد المعترف ، بعض المرضى بهذه الطريقة (٣) • ونرى فى فرنسا شيئاً من ذلك فى فجر الثورة وبعدها بعشرات السنين ، فان لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لمسوا آلاف المرضى لشفائهم (٤) •

هذه الأمثلة القليلة تكفى للبرهنة على أن عدداً من القبائل والشعوب نظروا الى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم الى موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ، ترغم الرعية على اتباعهم والتعلق بأهدابهم ــ واذن ساعدت الخرافة ، فى بعض الشعوب وفى بعض الأزمنة على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية ، وفى هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الاجتماعى بوجه عام •

---

(١) The Laws of Manu, VIII, pp. 5-8.

(٢) Homère, Odyssée, II, p. 235.

(٣) Crawford, The King's Evil, p. 11.

(٤) Ibid., p. 144.

٣- الخرافة والملكية الخاصة

● ثبتت الخرافة كذلك دعائم الملكية الخاصة وحفظتها ، اذ مما لا شك فيه أن هذه الملكية متأخرة في الوجود عن الملكية العامة ، فالناس عرفوا متاع الأمة ومال القبيلة قبل أن يعرفوا مال زيد وعمرو . والملكية العامة نفسها ظهرت في شكلها الأول على صورة الملكية المقدسة ، فنشأت في أحضان الخرافة وتربت على حسابها . وقد كان التقديس ولا يزال وسيلة من وسائل احترام الملكية والمحافظة عليها . وللخرافة يد أخرى في الدفاع عن الملكية ، فقد حاربت السرقة والسراق ، وحمت مال الفرد والجماعة ، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب . واذا تتبعنا عقائد الأمم الهمجية المعاصرة وتقاليدها ، وجدنا فيها خير برهان على هذه القضايا .

حرمة مال الرؤساء :

ففى البولينيز (Polynésie) أحد أقسام الأقيانوسيه ، لايجرؤ أحد على الاعتداء على أملاك الشيوخ والرؤساء والمحاربين لما لها من صفة مقدسة تبعاً لأصحابها ، فحرام على أى شخص أن يعدو عليها بالسرقة أو النهب أو التبديد ، ومن اقترف اثماً من ذلك استوجب غضب الآلهة ولعنة الملائكة والناس أجمعين . وجر على قبيلته بوجه خاص السخط والنكال ؛ لهذا كان عدو الجماعة التى تعمل على محاربته ورد المال المسلوب الى أهله . يقول براون : « ان كل ما يملكه السيد أو يحيط به مقدس فى نظر عبيده من سكان زيلنده الجديدة . لذلك لا يستطيع أحدهم ـ برغم حبه للتبغ ـ أن يمس ورقة منه علم أنها من مال السيد . وقد حدث مرة أن أعطى صديق لى حفنة من التبغ الى عبد لم يكد يمضغها حتى علم أنها أخذت من منزل سيده ، فأسقط فى يده ، وسارع المسكين الى مولاه يقص عليه القصص ، ويسأله المغفرة واباحة التبغ الذى مضغه ، خشية أن يجر عليه صنعه نتائج مهلكة (١) » . فبيت السيد اذن حرم آمن لا يستطيع مخلوق أن ينتهك حرمته . وكثيراً ما ترك رؤساء القبائل التى نتحدث عنها أموالهم وأمتعتهم معرضة للجمهور دون أن تصاب بسوء . واذا أراد فرد عادى أن يحمى ماله ، اكتفى بأن يميزه بشارة من الشارات المقدسة .

---

(١) W. Brown, New Zealand, pp. 13 sg.

ووسائل التقديس كثيرة : منها أن يقام فى الحقل شاخص على هيئة صليب أو سمك نهرى خاص «بروشيه» (Brochet) ، أو أن يوضع تحت شجرة الفاكهة صورة فأرة اذا رآها السارق ولى مدبراً، أو أن يربط فى عنق الشخص خيط أحمر علق فيه رمز لتمساح أو قطة أو وطواط، تلك الحيوانات التى تثير فى نفوس القبائل الهمجية عوامل الخوف والرعب ، أو التقديس والاحترام ؟ وقد تحمى قرية بأسرها بواسطة عزيمة أو رقية معلقة فى رجل دجاجة . فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة فى حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب الهمجية ، وربما كان لها على نفوس معتنقيها سلطان لا يعد له سلطان قوانيننا المنظمة . فكثير من البدو تأنف نفوسهم من الاذعان لأمر ، اللهم الا ما أملته تقاليدهم الخرافية أو قيودهم الجماعية . يقول بعض الرحالة : « انه ما كان يمكن حكم الزيلنديين بمجموعة من القوانين غير تلك التى جاءت بها خرافتهم . ذلك لأن هؤلاء القوم الحربيين يأبون أن يخضعوا للوائح ومراسيم لم تصدر عن الآلهة ، ولا يترددون لحظة فى أن يرفضوا فى احتقار أى أمر بشرى ، وفوق هذا فانه من الخير أن يقاد شعب قيادة هينة بواسطة خرافة يدين بها ، بدل أن ترغمه القوة الغاشمة ارغاماً (١) » .

---

(١) Thomson, The Story of New Zealand, p. 105.

الخرافة والسرقة :

وقد حاربت الخرافة السرقة بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب ، فسكان مدغشقر يعتقدون أن من سرق بيضة أصيب بالجرب ، ومن سرق قطعة من الحديد حلت به عاهة جسمية أخرى . ولكي يحمى أهل سيام حقولهم ينصبون فيها راية خافقة ، فاذا ما جرؤ لص واعتدى على هذه الحقول أصيب برعدة واضطرب اضطراب العلم الخفاق ، ولم يقو على الهرب . ويقال ان صياداً كان يفقد كل يوم جزءاً كبيراً من صيده ، فرأى أن يحصن شباكه وفخاخه بتلك الراية الآنفة الذكر ، فلم يدن اللص منها فى الغد الا وارتعدت فرائصه ، ولم يبرح مكانه حتى قبض عليه . وجرت عادة السومطريين (سكان سومطرة) أن يبتهلوا الى آلهتهم ويستنزلوا لعنات السماء على من سرق شيئاً من أمتعتهم ، فلا يلبث السارق أن يعلن عن نفسه وعما سرق . ويروى أنه سرق مرة أرز سومطرية ، فأخذت تدعو علناً على السارق ، وفى الصباح وجدت الأرز المسروق قد وضع خفية أمام بابها . وهاك نموذجاً من هذه الأدعية الغريبة : « شياطين الماء وملوك الأرض والسماء ، أسألكم المعونة والثأر لى ممن اعتدى على . فان كان السارق رجلا فليخفق فى جميع مشروعاته ، وليصب بمرض يعذبه عذاباً أليماً دون أن يقتله ، ولتخنه زوجه ، وليعصه ولده ، وان ذهب الى الحرب فليقتل ، وان ركب سفينة فليغرق دون أن يعثر له على أثر ،

وان قطع شـــجرة فلتسقط عليه ـ ولتصب الآلهة عليه جام غضبها ، فتهلك زرعه ولا تمن عليه بشيء يأكله حتى يضطر الى أن يتكفف الناس ولا يجيبون ســؤله فيموت جوعاً • وان كان السارق امرأة فلتبق عاقراً الى الأبد ، وليسيء زوجهـــا معاملتها ، وليهجر بنوها ، ولتصب بأمراض لا شفاء منها (١) » •

ويظهر أن قدماء الاغريق كانوا يلجئون الى أمثال هذه الأدعية والابتهالات لحفظ أموالهم ، فكانوا يكتبونها على ألواح خاصة يضعونها في الأمكنة التي يراد حمايتها ، ولا يزال بعض هذه الألواح باقياً الى اليوم • وقد اســتخدموا هذه الأدعيــة كذلك في ارغام السارق على الاعتراف بسرقته ، وهذا ضرب من وسائل التحقيق ان عيب بخرافته فهو يمتاز بسهولته • أما الرومان فقد ذهبوا الى ما هو أبعد من ذلك ، واعتقدوا أن هنــاك الهاً خاصــاً يتولى حراســة الحدود بين الحقول المتجاورة ، فكل من اعتدى على جاره كان عرضــة لســخط هذا الاله العظيم • ويخيل الينــا أن اله الحدود هذا يفسر ما كان عليه الرومان الأول من عنــاية بالزراعة وشــــئونها • وجملة القول أن الخوف الناشيء عن أسباب خرافية صرف الناس عن السرقة في كثير من الشــعوب القديمة ولدى القبائل الهمجية المعاصرة ، فنتج عن هذا احترام للملكية الفردية وأمن مكن المالك من الانتفاع بها •

---

(١) بتصريف من كتاب : E.H. Gomes, Seventeen Years..., pp. 64-66.

ولا يفوتنا أن نضم الى الملاحظات السابقة ما نشاهده بيننا من أثر الخرافة في حفظ المال والمتاع . فالعجل ان قيل انه « للسيد » قضى الليل والنهار فى الحقل وخارج الدار دون أن يصاب بأذى ، وان كان من عجول عباد الله الآخرين أضحى عرضة للسرقة والنهب والسم والذبح . وكيف لا « والسيد » الذى جاء بالأسير من بلاده كفيل بأن يحمى ماله غائباً أو شاهداً ، حياً أو ميتاً ! ولا أظننا نجهل الأحلام المتواترة والقائلة بأن فلاناً رأى « الامام » مثلا يطارده طوال الليل ، لأنه ، فيما يزعمون ، لم يف بنذر نذره له من قبل . وما أشنع هذا الزعم الذى يناقض أصلا من أصول الدين ، ويسمح بالتقرب الى غير الله ، وقد وصل الأمر ببعضهم أن ادعوا أن هذا البلد بلد « الدسوقى » ، والآخر ملك « البهنساوى » ، والثالث من نصيب « العريان » ، ويعنون بذلك أن كل واحد من هذه الأمكنة دخل فى حوزة حارس أمين وحام عظيم . فلم يكن بدعاً أن تلجأ طائفة من الناس الى نقل ملكيتهم — ان صح هذا التعبير — ولو ادعاء الى بعض الأولياء والمقربين ليحفظ مالهم من الضياع . أما التمائم والرقى فقل فيها ما شئت ، وحدث عنها ولا حرج : فتارة يقال ان هذه التميمة تحفظ من السرقة والغرق والحرق ، وأخرى بظن أن هذه الرقية ما تلبث فى دار الا أمنت كل مكروه ، ولعل عادة وضع التماسيح على الأبواب تعتمد على خرافة من هذه الخرافات التى ترمى الى حماية المال والمتاع .

٤ - الخرافة والزواج

● قد لا تكون الخرافة استولت على أية ظاهرة اجتماعية استيلاءها على الزواج وشئونه ، فرفعت قدره ، ودعت الناس اليه ، وحددت قيوده ، ونظمت ما يحيط به من طقوس ورسوم ، فلا يكاد المرء يفكر فى أن يتزوج حتى تتسرب الخرافة مسرعة الى تفكيره هذا ، محاولة أن تعين له الزوجة التى تليق به ، وباحثة عما اذا كان نجمها يتفق مع نجمه ، وطالعها يتلاءم مع طالعه . وكثيراً ما أحيطت حفلات العقد والزفاف برقى وتعاويذ أملتها الخرافة وأحكمت وضعها ، « فالتبييته » ، وحساب الطالع ، وقراءة الكف ، « وضرب الرمل » ، ترمى غالباً الى اختيار الزوجة الصالحة والشريكة الملائمة فى الحياة الأسرية ، واذا ما قر رأى الشاب والشابة على الزواج أسبغت عليهما الأحراز والتمائم التى تقيهما الساحر وضره ، والحاسد وشره . فتارة يكتب لهما بالألفة والمودة ، وأخرى يحصنان مما يوقع بينهما الشحناء والبغضة . ولم تتعفف الخرافة عن التدخل فى العلاقات الجنسية بين المرء وزوجه فتثيرها وتنشطها، أو تقف

فى طريقها وتقضى عليها • وكلنا يعرف خرافة « الحل والربط » السائدة فى قرانا ، والتى كانت ولا تزال مصدر رزق لجماعة السحرة والدجالين ، وباب شر دائم وألم مستمر للزوجين ومن يتصل بهما من أهل وأصدقاء • طغت الخرافة كذلك على الأسرة المكونة ، فسولت لبعض الناس أنها قادرة على أن ترد العاقر ولوداً ، وتسلب أم الأولاد نسلها ، وتقضى عليها بالحرمان والعقم •

لم يعن فريزر فى كتابه « محامى الشيطان » بدراسة هذه الخرافات المتعددة ، وانما تفرغ لايضاح نقطة واحدة هى موضوع هذا الفصل • وتتلخص فى أن الخرافة غرست فى القلوب حب الحياة الزوجية وتقديسها ، وحملت الناس على احترام القواعد الخلقية والقوانين الاجتماعية الخاصة بالعلاقات الجنسية بين العزب والمتزوجين • ذلك أنها أثارت على الزنى والفسق حرباً شعواء ، وصورتهما فى أقبح صورة ممكنة ، فأبعدت الناس عنهما بقدر ما قربتهم من الحياة الأسرية المنظمة • فالزنى واللواط وكل اختلاط جنسى غير مشروع كان ولا يزال لدى كثير من القبائل الهمجية من أفحش الخطايا الخلقية التى لا يقع اثمها على مرتكبيها وذويهم فحسب ، بل يتعداهم الى الطبيعة فيقلب نظامها ، والى الآلهة فيثير سخطها وغضبها • وربما أدت فعلة من هذه الفعال السيئة الى هلاك الحرث والنسل ، وموت الزرع ، ويبس الضرع ، وسقوط المطر ، والرعد والبرق ، ونزول الصواعق التى لا تبقى ولا تذر • لذلك

أضحى الزنى وتوابعه جريمة شعبية تهدد المجتمع بأسره ، وتعدو عليه فى أهم عناصر حياته من غذاء وماء وأمن وعافية •

يزعم سكان برمانيا من أعمال الهند الصينية أن الزنى ذو أثر سيىء على الحاصلات المختلفة • فاذا ساء المحصول فى قرية من القرى أو انقطع عنها المطر عاماً أو عامين متتاليين اعتقد الناس أن ذلك راجع الى ارتكاب الفحشاء التى أغضبت الآلهة • واذا وقف البرمانيون على حادثة من حوادث الزنى ألزموا الجناة بشراء خنزير صغير فى سكب دمه ما يغسل خطيئتهم الشنعاء ، وقد جرت عادة المتقرب أن يبتهل الى الله حين يقدم قربانه قائلاً : « اله الأرض والسماء والجبال والهضاب ، قد أجدبت الأرض من أجلى ، فلا تنزل على جام غضبك ونذير سخطك ، وارأف بى وارحمنى • هأنذا أصلح الجبال وأسوى الهضاب وأحفر الأرض وأشق الأنهار ، فاللهم رد الينا الحصيل المفقود ، ولا تضيع علينا أى مجهود ، وأخصب أرضنا ، ونم زرعنا (١) » •

ويعتقد كذلك كثير من برابرة أفريقيا الغربية أن الآلهة تعاقب بالجوع والخوف والقحط والجدب كل جماعة انتهك فيها عرض أو اعتدى على محرم • ويروى أنه سنة ١٨٩٨ م انقطع المطر عن هذه الجهات زمناً طويلا ، فجفت الذرة ، واحترقت أوراق البطاطس والنباتات الأخرى • فهرع الأهلون الى قسسهم يرجونهم أن

---

(١) Mason, Journal of the Asiatic Society of Bengal, (1868), s. XXXVII, 2ème partie, pp. 147 sq.

يستكشفوا سر هذا السخط العظيم . وبعد تضرع طويل وابتهال خالص تبين هؤلاء القسس أن آلهة السماء غاضبة على سكان الأرض لسوء سلوكهم . فجمع كل رئيس أتباعه ، وأرسل فيهم العيون والأرصاد للبحث عن أصل هذه الجناية الكبرى . وقد أدى البحث الدقيق الى اثبات أن ثلاث فتيات أبحن أعراضهن وأكلن بأثدائهن ، وما ان همت القبائل بمعاقبتهن حتى نزل المطر مدرارا (١) ! ويزعم كثير من متوحشى سومطرة أن الزنى مجلبة للطاعون والأمراض المهلكة واعتداء الحيوانات المفترسة أمثال النمر والتمساح . وعلى الجملة فمعظم القبائل الهمجية الباقية الى اليوم يعتقد أن كل اعتداء على العرض أو مخالفة لقوانين الزواج مصدر عقوبات سماوية كثيرة ، أخصها انقطاع المطر وجفاف الأرض ونقص الزرع .

وليست هذه المعتقدات بمقصورة على القبائل المتوحشة ، بل ان لها أثراً لدى بعض الشعوب المتمدينة . فالاغريق مثلا يؤمنون بعضها ، ويفسحون للخراقة المجال فى العلاقات الجنسية كما أفسحوا لها فى شئونهم الاجتماعية الأخرى . يروى سوفوكل أن بلاد تيبان أصيبت بالجدب والطاعون تحت حكم أوديب الملك الذى قتل عفوا أباه وتزوج أمه . فأصبحت القرى والحقول قفراء ، وأضحى كثير من المدن خراباً يباباً . وأعلن وحى (دلف) أن لا سبيل لرفع هذه الطامة ورد الحياة الى هذه الأرض الموات الا بطرد

---

(١) Drapper, Description de l'Afrique, p. 326.

المجـــرم (١) . وفي شرائع بني اسرائيـــل ما يؤذن بأن ارتـــكاب الفحشـــاء يغير نظام الطبيعة ، ويبدل ســـنة الله في خلقه . يقول ايوب : « الزنى جريمة شـنعاء ، وخطيئة تستوجب قصاصاً لا مفر منه ، ناراً تأكل الشحم واللحم وتقضي على الحاصلات كلها » (٢) . وفي القرن الثالث الميـــلادي لم تؤت الحقول الارلندية أكلها ، فيما يزعمون ، لأن أحد الملوك تزوج بأخته (٣) . وما لنا نذهب بعيداً وكثير منا يعتقد أن مرور الزاني بحقل أو وقوفه في بيدر يؤذي ثمره ، وينقص غلته ويذهب بركته .

أما أخطار الزنى المباشرة وأثره السيء في مرتكبيه أنفسهم ، فيكاد يسلم بها في مختلف المجتمعات الانســـانية . وكثيراً ما علل فقر الرجل وفشله في صـــناعته أو زراعته بفجوره وفسقه . واذا أصاب المرء أمر أو حل به حادث ، ظن الناس أن في هذا انتقاماً منه لجرم اقترفه أو عرض انتهكه . والأمثلة في هذا الباب كثيرة سواء لدى القبائل الهمجية أم في الأمم المتمدينـــة ، وســـنكتفي بعرض بعضها . فبدو روديســـيا يلعنون كل امرأة تموت أثنـــاء وضعها ، ويتهمونها بالفجور والفسق وقتل روح بريئة لا اثم لها . وتزعم طائفة من ســـكان أفريقيـــا الشرقية أن الطفل الذي يعدو على زوج أبيه يصاب بعاهة دائمة . وتقول طائفة أخرى ان المرأة تموت ان

---

(١) Sophocle, Aedipe-Roi, 22 sq., 95 sq.

(٢) Job, xxxi II sq.

(٣) Keating, History of Ireland, pp. 337 sq.

أتى زوجها الفاحشة أثناء حملها ، واذا لمس أب ابنه الصغير صبيحة ارتكابه المنكر مرض ولده على الأثر • وحدث مرة أن مات ثلاثة اخوة فى فترة قصـــيرة فاتهمت أمهـم بالزنى مع رحم محـــرم • ويعتقد كثير من القبائل الهمجية أن خيانة الزوجة سبب محقق لفشل الزوج فى صيده ورحلاته وحروبه ، وربما أدى ذلك الى موته • لهذا اعتـاد كثير من الهنود ، ان خرجوا الى الحرب ، أن يجمعوا نساءهم فى صعيد واحد كى ترقب احداهن الأخرى •

فواضح اذن أن الزنى وما اتصل به ، فى نظر كثير من الشعوب البائدة والحاضرة ، خطر يهدد الفـرد والأسرة والمجتمع ــ وليس شره مقصوراً على مرتكبيه وحدهم ، بل يتعداهم الى القبيلة جميعها والشعب بأسره ، هو جناية عامة وجريمة شـعبية تصيب الأمة فى أموالها وأرواحها • لذلك قسا الناس فى محاربته وأنزلوا بالزناة أشد العذاب • واذا صح أن نقيس الجريمة بما قدر لها من قصاص، اســـطعنا أن نقول ان الزنى من أشنع الجرائم التى عرفها الانسان ، ان لم يكن أشنعها • وهذه القسوة الزائدة فى مطاردة الزنى والزناة سهلة التعليل ، فان المســألة مسـألة حياة وموت ، مسألة دفاع عن مجتمع مهدد فى أعز شىء لديه ، فهو مدفوع بطبيعته الى أن يحارب من يحاول الاعتداء عليه •

ومن هنا كانت العقوبات الصارمة التى أنزلتها الأمم والشرائع المختلفة بكل من استباح عرضـاً أوجنى على عفاف امرأة • فقوانين

(مانى) تقضى بأن ترسل على الزانية كلاب تنهشها جهرة تحت سمع الجمهور وبصره ، وعلى الزانى بأن يوضع فوق حديدة محماة يقلى بها قليا (١) . وتعاقب قوانين حامورابى الزناة بالشنق والاغراق (٢)، وقد كان بنو اسرائيل يحكمون على الزانى غير المحصن بالرجم ، وعلى المحصن بالقتل (٣) . ولا تزال بعض القبائل الهمجية تطبق هذه العقوبات على الزناة فى غير ما شفقة . ففى افريقيا الوسطى يجلد الزانى وتهاجم حقوله ومنازله ويسلب ماله . واذا تبين أحد الأحباش أن أخته أو ابنته ارتكبت الفاحشة قتلها جهرة وقتل عشيقها معها . ولدى الهوتينتوت قانون مشهور يحكم على الزناة بالقتل ضربا بعصا غليظة . وقد اعتاد سكان الهند الشرقية أن يرموا الزناة فى عرض النهر بعد أن يثقلوهم بالحجارة ، فاذا استطاع أحدهم النجاة عفى عنه ، وفى سومطرة يوأد الزانى ويقبر حياً .

نرى بعد الذى تقدم أن الخرافة صورت الذنى والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها ، وأبرزتهما فى مظهر عاملين خطرين من عوامل القضاء على الفرد والأسرة والمجتمع ، وبذا فى سبيله عقبات كثيرة تحول دون وقوعه ، وهذا هو السر فى أن القبائل الهمجية تباعد بين الأقارب الأقربين ، فى حين أنها لا تجد

(١) Laws of Manu, VIII, 371 sq.

(٢) Code of Hammurabi, parag. 129, 157.

(٣) Deutéro, XXII, 22.

غضاضة فى أن يختلط الأجانب بعضهم ببعض • فجماعة البنتو فى افريقيا الوسطى لا يسمحون مطلقاً للرجل بأن يتناول طعام العشاء مع حماته ، ولا للمرأة بأن تتعشى مع حميها منفردين • ومن الجرم أن يرى رجل حماته تأكل ، وعليه أن يكفر عن هذا بمختلف القرابين ، وليس له أن ينعم النظر فيها ، واذا خاطبها وجب عليه أن يطأطىء رأسه ويغض من طرفه • وان صادفها على غرة أفسح لها الطريق ، وسارع الى الغابة مختفياً كى لاتراه ولا يراها تماماً • وأغرب من هذا أن أهل سومطرة لا يبيحون للرجل أن يأكل مع صهره عارى الوجه ، واذا رأى صهره فمه مفتوحاً أحس بخجل عظيم ، وتوارى فى الغابات المجاورة • فهذه العادات والتقاليد الغريبة يفسرها شىء واحد ، وهو أن هذه القبائل تحول دون أى اختلاط يكون وراءه معصية الأقارب الأقربين •

نرى بعد الذى تقدم أن الخرافة صورت الزنى والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها ، وأبرزتهما فى مظهر عاملين خطرين من عوامل القضاء على الفرد والأسرة والمجتمع ، وبذا استطاعت الى حد كبير محاربتهما والقضاء عليهما ـ واذا كان المجتمع ينظر بعين السخط والمقت الى كل اختلاط جنسى غير مشروع ، فانه يدفع الأفراد تبعا الى احترام الزواج والخضوع لقيوده • وكل رأى أو عقيدة أو تشريع يحارب الاباحية هو فى الوقت نفسه سلاح قوى لتثبيت دعائم الحياة الأسرية •

٥ - الخرافة .. واحترام الحيــاة الإنســانيــة

● أسفلنا القول فى بيان أثر الخرافة فى تثبيت دعائم الحكومة ، والملكية الشخصــية ، والزواج . وها نحن أولاء نشرح ما غرســته فى النفوس من تقديس للانســان واحترام لحياته ـ وبذا نكون قد أتممنا ســلسلة النظم الاجتماعية التى شــاء فريزر أن يبين مقدار تدخل الخرافة فى نشأتها وتكوينها .

بديهى أن معيشــة البادية المبنية على حب الانتقام ، والأخــذ بالثــأر ، وحماية الجار ، والدفاع المستميت عن المــال والعرض ، والمملوءة بالأضغان والأحقاد ، أدعى لاراقة الدماء واعتداء المرء على أخيه . فالانســان الأول الذى عاش هذه العيشة المضطربة ما كان ينعم بضمانات كافية لحفظ روحه . فلم يكن له عسس منظم يسهر على حراسته ، ولا قانون واضح يهدد بالعقوبة كلّ من اعتدى عليه ،

ولا محاكم محترمة تشهر بالجناة وسفاكي الدماء • ولا زلنا نشاهد الى اليوم أن القتل وازهاق الأرواح البريئة ينتشر حيث تسود الفوضى والاضطراب ، وفى الأوساط البدوية والقبائل الهمجية بوجه خاص • بيد أن المجتمع يعالج نفسه بنفسه ، ويعد لكل داء ما يناسبه من دواء • ولئن فات الانسان المتوحش شرطتنا المنظمة ، وجندنا الشاكي السلاح ، فانه لم تفته وسائل أخرى من وسائل الدفاع عن نفسه وحقن دمه • ومن بين هذه الوسائل خرافة الأشباح وأرواح الموتى التى تتمثل فى صورة شياطين ومردة تنتقم ممن اعتدى عليها •

قد لا تكون هناك خرافة سادت العالم سيادة هذه الخرافة • ظهرت مع الانسان منذ نشأته ، ولازمته فى مراحل التاريخ المختلفة : تبدو فى العصور القديمة والوسطى والأزمنة الحديثة ، بين البدو والهمج ، ولدى الأمم المتمدينة • ويكفى أن نشير الى أن كثيرين منا لا يجرءون على السير ليلا ـ بل نهاراً ـ بجوار دار قتل فيها قتيل ، زعماً منهم بأن روحه الثائرة ستفتك بهم • ولعل عادة تغيير المسكن السائدة بيننا على أثر حريق أو وفاة ما ترجع الى هذه الخرافة، كما هو الشأن لدى بعض القبائل الهمجية • ويقص علينا عامتنا وسكان قرانا أغرب القصص عن المردة الذين لاقوهم فى طريقهم ، ودار بينهم ما دار من حوار ونقاش ، والماهر منهم من استطاع أن ينجو من المارد الذى اعترضه بجواب لبق أو حيلة ماكرة ! وحديث

« القرينة » والعفاريت ملأ قرانا ومدننا ، وأصبح أشهر من أن يعرف عنه ، وله طب خاص وقوامون على أمره يتعهدونه بالبخور « والدقة » وما الى ذلك من علاج كله ضلال وبطلان .

ليس بعسير على الباحث أن يثبت أن خرافة الأشباح هذه جنت على الانسانية جنايات شنعاء ، فبلت بعض الأشخاص بالخوف حتى من ظلهم ، وقضت على آخرين بالجنون والصرع وكثير من المصائب والآفات . وقعدت بكثيرين عن السعى وراء أرزاقهم خشية أن يعدو عليهم شبح من الأشباح أو روح من الأرواح . وفى بعض القبائل المتوحشة لا يستطيع شخص أن ينتفع بمال أبيه وأهله وذويه بعد موتهم ، لأن أرواحهم تنتقم منه أشد الانتقام غيرة على هذا الحرم المباح والمال المعتدى عليه ، فكل يعيش ليومه ، ولا يعمل شيئاً لغده . وعلى هذا كانت فكرة المستقبل التى هى أساس التقدم الصناعى والتجارى والاقتصادى ضائعة لدى هذه القبائل ، وفى ضياع هذه الفكرة ما يتنافى وتكوين الثروة والمتاع . وكيف تتكون الثروة عند قوم كل همهم من الدنيا عشرات السنين يعيشونها ، فاذا ماتوا انقرضت أمتعتهم معهم وبددت أموالهم؟ يقول أحد كبار الرحالة : « انه ليس لدى البتاجون (من سكان أمريكا الجنوبية) أى قانون ولا أية عقوبة ضد المجرمين . كل يعيش على حسب هواه ، والسارق الماهر هو الجدير بالتقدير . وليس هناك ما يمنعهم من السرقة واقامة الأبنية الثابتة الا العقيدة السائدة بأنه

اذا مات أحدهم وجب أن تبدد أملاكه . فكل بتاجونى حصل على ثروة طوال حياته بالسرقة أو الصيد أو التعامل مع القبائل المجاورة لا يفيد ورثته منها فى شيء ، ذلك لان كل ما ادخره يبلى معه ، وعلى أبنائه أن يكونوا ثروتهم بمجهودهم الخاص ... وقوم هذه معتقداتهم وتقاليدهم يقنعون بحاجاتهم العاجلة ولا يتعلقون برغبة حقيقية ، ولا يصوبون نحو غاية بعيدة ، وهذا سر كسلهم وتواكلهم ورضاهم بالقليل الذى يتنافى مع التقدم والحضارة . وعلام التعلق بالمستقبل الذى لا يرجى منه خير أو شر ؟ الحاضر هو كل شيء فى أعينهم ، والمنفعة الذاتية مبدؤهم ، فالابن لا يتعهد قطيع أبيه لعلمه أنه لا يعود عليه بطائل ، وانما يكد ويكدح وحده ليحصل على ثروة شخصية (١) » فخرافة الأشباح والعفاريت والمردة سبب من أسباب الضعف السياسى والاقتصادى لدى بعض الشعوب الناشئة والجاهلة .

غير أن هذه الخرافة ليست شراً كلها ، بل كانت عاملا من عوامل الخير والدفاع عن الانسان فى المجتمعات التى سادت فيها ، فالخوف من الأشباح وعدوانها والأرواح وانتقامها ساعد على حقن دماء كثيرة واحترام الحياة الانسانية . وذلك أن طائفة من الشعوب تعتقد أن أرواح الموتى والقتلى ذات نفوذ عظيم وقوة هائلة تستطيع

---

(١) Alcide d'Orbigny. Voyage dans l'Amérique Méridionale, II, p. 99 sq.

بها أن تعكر على الأحياء صفوهم وتعترضهم فى طريقهم وتتقمص أجسامهم . وأرواح القتلى بوجه خاص مفطورة على الثأر ممن اعتدى عليها فى شخصه أو فى أهله وعشيرته . لهذا يضطر الأفراد والجماعات لترضيتها بالهدايا والقرابين ، فيذبحون المعز والضأن والديكة والخنازير التى يغسل القاتل بدمها أقذار خطيئته . وأحياناً يحاربون هذه الأرواح ويطاردونها بمختلف الوسائل ، ويهجرون القرى والمساكن من جرائها . وكم من قرية كانت آهلة بالسكان صباحاً ، ثم قتل فيها قتيل ظهراً ، فاضحت فى المساء خراباً يباباً ! وقد يمثل بالمقتول أشنع تمثيل لتبقى روحه كامنة فى جسمه وعاجزة عن الثأر له .

فالاغريق الأول كانوا يعتقدون أن روح القتيل تتأجج غيظاً ممن اعتدى عليها وتتابعه فى حقله ومسكنه ، ولا ينجيه منها الا فراره خارج الديار عاماً كاملا ، يرجى فيه أن تهدأ هذه الروح من ثورتها . واذا عاد الى وطنه سارع الى تقديم الضحايا والقرابين تكفيراً عن اثمه . وقاتل هذا شأنه يعد شراً يتقى وخطرا يخشاه المجتمع ، لما يحيط به من أرواح ثائرة قد تؤذى كل من حام حوله ، فكان طبيعياً أن تحكم القبيلة على القاتل بمفارقة البلاد الزمن اللازم لتكفير خطيئته وارضاء الروح التى جنى عليها (١) . والصينيون كانوا ولا يزالون يؤمنون ببقاء الأرواح وقدرتها على مكافأة المحسنين

---

(١) Platon, Lois, IX, 8 ; Aristote, Constitutions d'Athènes, 57.

والانتقام من المسيئين ، فهى تتدخل من غير انقطاع فى عالم الأحياء ، وتتصرف فيه تمام التصرف . نعم ان هناك فرقاً بين الأشخاص والأرواح ، بين الأحياء والأموات ، بيد أن هذا الفرق طفيف والمسافة بين هذه الأطراف قصيرة للغاية . وما الديانة الصينية الا مجموعة أفكار تدور حول الأرواح وما يتصل بها . وقوم يذعنون للأرواح هذا الأذعان لا يجرءون على الاعتداء عليها ويقدسون الحياة الانسانية تمام التقديس (١) . ويعتقد سكان أفريقيا الوسطى أن القاتل اذا قاسم قوماً فى طعامهم أو بات فى كوخهم أحل بهم غضب الله ، وربما كان سبباً فى هلاكهم ، اللهم الا ان تداركهم القسس والكهنة بأدعيتهم وتضرعاتهم . ويزعم بعض القبائل الهندية أن الرجل اذا قتل عدوه لا يسلم من شر روحه ، الا ان أراق دم خنزير أو جدى صغير . ومع أن الباتنو يعدون الفوز فى المعارك الحربية مفخرة عظيمة وشرفاً لا يعدله شرف ، فانهم يخشون أن تصل بهم أرواح القتلى الى الجنون والصرع . ولدرء هذا الخطر يبقى المحارب الظافر فى العاصمة بضعة أيام لابساً خرقاً بالية آكلاً فى أوان وبملاعق خاصة ، وحرام عليه أن يشرب الماء وأن يقرب النساء وأن يتناول أى طعام دافىء . واذا قتل أحد سكان الكنجو قتيلاً حمل على رأسه بعض أرياش الببغاء وغطى جبهته بلون أحمر ، وكأنما يريد بذلك أن يستتر عن أعين الروح التى تطارده .

---

(١) H. Groot, The religious system of China, IV, p.p. 560 - 564 .

وفى غانا الجديدة تســـارع القبيلة المحاربة بعد انجازها هجوماً أو معركة ما بالعودة الى مسكنها أو الى قرية محالفة قبل أن يدخل الليــل الذى تهيج فيه الأرواح وتتشبث بالقتلة والمحـاربين • وفى مقدور الروح أن تتعرف من اعتدى عليها بما لصق بجسمه من دم القتيل أو أى أثر من آثاره • لذلك يطهر المحارب جسمه وحربته بعد أن يتم مهمته ، واذا وصل الى قريته حيل بينه وبين أهله وذويه وبقى منعزلاً فترة من الزمن ، وفى اليوم الثالث من وصوله يحتفل به أصدقاؤه احتفالاً مناسباً ، وفى اليوم الرابع يلبس أجمل ثيابه وعدة حربه ويخرج شاكى السلاح مخترقاً شوارع القرية ، لعله يرمى بهذا الى استرداد قوته وشجاعته • واذا شكا أحد أبناء القرية ألماً فى معدته ظن أن ذلك راجـع الى أنه جلس فى مكان شـغله محارب من قبل ، واذا أصيب بأذى فى أسنانه عزا هذا الى أنه أكل فاكهة لمسها محارب (١) •

وأرواح الآباء والأقارب القتلى بوجه خاص شديدة الهـول وعظيمة الخطــر ، لأنها تجد وسائل كثيرة للثأر لنفسها وهى أعرف بدخائل القاتل من الأرواح الأخرى • وقد يكون فى هذا مايفسر قسوة الجمهور الى اليوم على قاتل أبيه أو أمه أو أخيه • والقوانين الجنائية نفســها مشربة بهـذا المعنى فى مختلف الأمم والشرائع ، ولأبناء القرية الواحدة من الجلال والحرمة ما للأهل والأقارب ،

(١) Guise, On the tripes inhabiting... New Guinea, Journal of the Anthropological Institute, XXVIII, p. 213 sq.

فلئن استساغ همجي ازهاق روح أجنبية لا يستطيع أن يخفي ذعره من اعتدائه على روح جاره ومواطنه ـ فسكان الكونجو مثلا لا يرون غضاضة عليهم في العدوان على القرى المجاورة ، في حين أن عدوانهم على أبناء قبيلتهم وقريتهم يملؤهم خوفا ورعباً ، ولايتردد القاتل في أن يلبس السواد على من قتله ويحزن عليه حزناً شديداً ، كأنه أحد أقاربه أو أصدقائه ، ولا يشرب ولا يأكل ، ويبكي بكاء مراً (١) •

وليس خطر الأرواح والأشباح بمقصور على الافراد وحدهم ، بلّ يتعداهم الى المجتمع بأسره ، لأن الأرواح الثائرة ربما تعدو على من صادفها دون أن تميز الجاني من غيره • لذلك يضطر المجتمع الى تهدئة ثورة هذه الأرواح بشتى الوسائل أو الى محاربتها والفرار منها • ومن الأمثلة على ذلك أن أهل برمانيا يزعمون أن أرواح القتلى لا تصعد الى عالم السعادة ولا تنزل الى عالم الشقاء ، وانما تبقى دائما حائرة في الأرض تفزع من تلقى • ولترضية هذه الأرواح تقدم لها في الغابات المجاورة قرابين من الأرز مصحوبة بالأدعية الآتية : « أرواح من سقطوا من شجرة ، أو من ماتوا جوعا وعطشاً ، أو من أكلهم النمر والثعبان ، أو من عدا عليهم الانسان ، أو من أهلكهم الطاعون والجرب ، لا تسيئوا معاملتنا ، ولا تؤذونا ولاتثوروا

---

(١) Weeks, Among Congo Cannibals, p. 268.

علينا ، امكثوا هنا فى هذه الغابة حيث الأرز اللازم لطعامكم (١) ، وقد لا يقف المجتمع عند القرابين والهدايا للتكفير عن خطيئة القتل وتهدئة الأرواح المضطـربة ، بل يعمل على مطـاردة هذه الأرواح بطرق أخرى . فهنود أمريكا الشمالية اذا عادوا من معركة صاحوا صيحات عالية ، وأحدثوا جلبة وضوضاء يراد بها منع الأرواح من أن تدخل قراهم ، ومن الغريب أنا نجد نفس هذه التقاليد لدى سكان غانا الجديدة الهولندية والألمانيـة ، وفى استراليا . ويقطع جماعة الأسكيموا المقيمون فى مضيق بيرنج عضـــلات ذراع القتيل وجنبه ليحول ذلك دون سيره ان عادت روحه الى جسمه طلباً للثأر . وفى أفريقيا الجنوبية يهشم العمود الفقرى تهشيما منعا للقتيل من الحركة ، وتملأ طائفة أخـرى عين القتيل بالفلفل كى تضل روحه السبيل .

فخرافة الأرواح والأشـباح ملأت الناس أفراداً وجمـاعات ذعراً وهولا ، ودفعتهم الى احترام الحياة الانسانية وتقديسها . وما القوانين الجنائيـة المنظمة ، والمحاكم القــائمة بين النـاس بالعدل والانصاف الا أثر صالح من آثار هذه الخرافة . خشى الفرد القاتل الأرواح وعدوانها ، فلم يسرف فى القتل حباً لذاته وتعلقاً بشخصه ، ورأت الجماعة فى هذه الأرواح خطرا يهدد كيانها ، فأنزلت بالقتلة صارم العقاب ، وسنت ما سنت من حدود تردع الجنـاة وسـفاكى

(١) Bringand, Les Karins de la Birmanie, p. 208.

الدماء ، وبذا أضحت الحياة الانسانية محفوظة بعاملين : داخلى وخارجى ، فردى وجمعى ، ومحمية بسلاح الأخلاق والقانون •

ويجهد الفقهاء والمشرعون أنفسهم اليوم فى مناقشة النظرية القائلة بأن الحدود جوابر أو زواجر • ويختلف علماء القانون الجنائى فى أثر العقوبة : فطائفة تقول ان الغرض منها اصلاح المجرم ، وأخرى ترى فيها القصاص الملائم للمجنى عليه ، وثالثة تعدها ترضية لازمة لعاطفة الجمهور الثائرة والمعتدى عليها • وما هذه الآراء المتباينة والنظريات المختلفة الا منطق مهذب ندخله فى تقاليد القبائل الهمجية ، وتعليل منمق نصبغ به خرافات الشعوب الأولى • وهكذا تسير الانسانية من الخيال الى الحقيقة ، ومن بحر الخرافة العميق الى صخور العقل الثابتة ، ومن الخارق للعادة الى الطبيعى ، ومن المسلم به الى المنطقى •

٦- خاتمة

● تخير فريزر أربعة من النظم الاجتماعية ليبين ما للخرافة من أثر فى نشأتها وتكوينها . وهى : الحكومة ، والملكية الفردية ، والزواج ، واحترام الحياة الانسيانية . فأثبت فى وضوح أن الخرافة ساعدت على تأييد الحكومة وبسط نفوذها ، وكانت عاملا قويا من عوامل الأمن والنظام . وثبتت كذلك دعائم الملكية الشخصية وصيرتها مقدسة بحيث أصبحت فى مأمن من السلب والعدوان ، واستطاع أصحابها أن ينتفعوا بها تمام الانتفاع . وحاربت الزنى والزناة ، فدعت الناس الى الزواج وحببتهم فى الحياة الأسرية . ثم صورت الخرافة أخيراً الموتى والقتلى فى صورة أشباح عظيمة الهول وأرواح تنتقم ممن اعتدى عليها ، فكان فى هذا ما صرف الناس عن سفك الدماء ودفعهم الى احترام الحياة الانسانية . وهذه النظم الأربعة هى عماد البناء الاجتماعى بأسره ، اذا اضطرب واحد منها اضطرب له المجتمع كله . فكأن الخرافة لم تؤثر فى بعض النظم الاجتماعية فحسب ، بل اثرت فى عناصر الحضارة والتقدم على اختلافها . هى شر جاء

من طريقه خير كثير ، وخطأ فى ذاتهـا الا أنها هدت النـاس الى صـواب عظيم • وليس يعنى المجتمع أن يـكون مدفوعا الى الخير ببواعث خيرة ، بقدر ما يعنيه أن يصـل الى هذا الخير من أى طريق كان وكيفما كانت الدوافع • والأفراد أنفسهم لا يخرجون عن هذا القانون ولا يتعدون هذا النظام ، لأنه ما دامت أعمالنا طيبة ، فليس يعنى الغير كثيراً أن تكون نوايانا صالحة • ولئن ملأت الخـرافة أدمغة الناس بخزعبلات لا حصر لها وقادتهم الى أخطر الويلات ، فمن الظلم أن ننسى أياديها فى الترفيه عن الانسانية والدفاع عن المجتمع • وكفاها احساناً أنها هيأت للعجزة ، والضعفاء ، والجهلة ، وناقصى العقول وسيلة من وسائل العمل الصالح وسلكت بهم سبل الخير • فهى كالعود قد ينقذ غريقاً ، أو كالفنار الضئيل الذى يهدى كثيراً من المارة وعابرى السبيل ، وان لم يتجاوز ضوؤه ظله •

تابعنا فريزر فى الفصول السابقة ، وسرنا وراءه خطوة خطوة رجاء أن نعرض صورة كاملة من آرائه وأبحاثه • ولعل القارىء قد تبين فى هذه الصورة غزارة مادة العالم الانجليزى وسعة اطـلاعه وتمكنه من موضوعه • فهو لا يكتفى بأن يدرس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لدى قبيلة أو شعب أو طائفة ، وانما يستقرى الشعوب ويتتبع المجتمعات على اختلافها : فمن زنوج افريقيا الى هنود أمريكا ، ومن متوحشى استراليا الى سـكان الهند والصـين ، ومن القبائـل الهمجية الى الأمم المتحضرة ، ومن العصور القديمـة الى التـاريخ

المتوسط والحديث • تشهد أمثلته ، فوق غزارتها ، وحسن اختيارها، بدقة الملاحظة والتعمق في البحث • هذا الى خيال رائع ، وأسلوب جذاب ، وأحكام متواضعة لا زهو فيها ولا ادعاء ، ولا مبالغة ولا تهويل ، قد أملتها دراسة هادئة ، واستبطتها عقلية متزنة •

ويكفى للبرهنة على ذلك أن نسرد الفقرة التالية التى ختم بها فريزر بحثه اذ يقول : « هاكم ، سيداتى وسادتى ، دفاعى عن الخرافة الذى قد يعرض تخفيفاً عن هذا المتهم الساقط حين يقف بين يدى القضاة ، ومع هذا سيحكم عليه بالاعدام لا محالة ؟ غير أن هذا الحكم لن ينفذ في جيلنا الحاضر ، وسيبقى موقوف التنفيذ الى أجل بعيد • وما أنا الا محام ـ لاخصم ـ يتقدم اليكم الليلة • وقد كانت محكمة أثينا العليا لا تقضى في الجنايات الا ليلا ، لهذا تخيرت الليل للدفاع عن سلطان الظلام • والآن ، ونحن في ساعة متأخرة ، يجدر بى أن أختفى مع موكلى الأشأم قبل أن يصيح الديك ، ويبدو ضوء الفجر الرمادى في الأفق (١) » •

***

وفي دراسة فريزر للخرافة ناحية أخرى جديرة بالتقدير ، ذلك أنه أخذ على عاتقه نصرة قضية يتبادر الى الذهن بطلانها • يكاد يجمع الناس على أن الخرافة مبعث شر ومثار فتنة ؟ ويأبى فريزر الا أن يخرج على هذا الاجماع معلناً أن في باطن هذا الشر

(1) Frazer, L'avocat du diable, pp. 294-95.

خيراً عظيماً وأن الخرافة أساس النظم الاجتماعية الهامة . وقد نجح نجاحاً كبيراً في اثبات دعواه والبرهنة على ما كان يرمي اليه.* بيد أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن ما يسميه فريزر خرافة هو في رأى معتنقيه دين وعقيدة . فالهمجي يخضع للملوك والحكام خضوع الموقن بسلطانهم الخارق للعادة وهيبتهم الصادرة عن السماء ، ويؤمن بأن مال سيده ورئيسه مقدس فلا يمسه بسوء ، ويعتقد أن الزنى مجلبة للصواعق والجدب والقحط فلا يقربه ، ويخشى الأرواح والأشباح خشية الواثق من وجودها فلا يقتل نفساً ولا يسفك دما . ولو خالجه الشك يوماً في هذه المعتقدات ما انقاد لها ، ولو جال بخاطره أنها تمت الى الخرافة بصلة لنبذها نبذ النواة . نعم ان من الديانات ما هو حق ومنها ما هو باطل ؛ ولكن الفكرة ، صواباً كانت أم خطأ ، متى اكتست بكساء الدين أضحت قوة هائلة وأثرت في المجتمع تأثيراً نافعاً . ولو لم يكن للأديان الا هذا النفوذ في قيادة الشعوب والتأثير في الجماهير لكفى في نصرتها والاستمساك بها .

ونستطيع أن نأخذ على فريزر ـ فوق هذا ـ عنايته بالأمثلة وتعلقه بالحوادث الجزئية أكثر من بحثه عن القواعد الشاملة والقوانين العامة . وهذا نقد يصدق على مدرسة الاجتماع الانجليزية الحديثة بأسرها التي قامت أعمالها أولا وبالذات على الرحلة والمشاهدة، دون أن تعير النظريات والضوابط اهتماماً كبيراً ، وقد جاراها فريزر في هذا التيار . انظر أي كتاب من كتب سبنسر أو وسترمرك

أو تيلور الاجتماعية مثـلا تجـد أنك تنتقل من مشـاهدة الى مشاهدة ومن مثال الى آخر ، وقل أن تظفر بقضية عامة أو أصل ثابت . نحن لا ننكر أن هذه الطريقة أفادت علم الاجتمـاع مادة غزيرة وثروة طائلة ، الا أن هذه المادة لم تهيأ بعد للتغذية ، وهـذه الثروة لما تستثمر . هى مادة أولية « خام » ، ان صح هذا التعبير ، فى حاجة الى من يستخلص منها روحها وما حوت من أسرار . وقد فطن علماء الاجتماع الفرنسيون ــ وهم أبعـد الناس عن السـفر وأرغبهـم عن الرحلة ــ الى هـذا النقص فـكملوه ، واسـتغلوا التجارب والمشاهدات الانجليزية استغلالا حسناً ، وصاغوا المعلومات الاجتماعية فى القوالب العلمية الحقـة . فاذا كان علم الاجتمـاع مديناً لرحالة الانجليز والأمريـكان بما فيه من مشـاهدات جزئية وحوادث واقعية ، فان الفضل فى كثير من نظرياته وقوانينه يرجع الى المدارس الفرنسية .

ومهما يكن من أمر فهناك نقطتان هامتان نخرج بهما من أبحاثنا السابقة فى الخرافة ، أولاهما خاصـة بمصر والشرق فى جملته ، وتتلخص فى أنه يسود هـذه الديار قدر وفير من الخرافات أشرنا اليها سلفاً . فالخرافة متوغلة فى كثير من معتقداتنا وعباداتنا ، فى عاداتنا وتقاليدنا ، فى آرائنا وأفكارنا . وليس معنى هذا أن أوربا خاليـة من أية خـرافة ؟ كـلا فللغرب خرافات كمـا للشرق ، والمجتمعات على اختلافها لا تسـتطيع أن تتخلى عن مجمـوعة من

الخرافات ترى فيها غذاء لميولها وأحلامها • ولكن مما لا شك فيه أن الخرافة وجدت بين ظهرانينا مرتعاً خصيباً فنمت وترعرعت • وما أجدرنا أن ندرس خرافاتنا لنعرف أصلها ونشأتها وصلتها بالخرافات العالمية الأخرى ؛ وبذا نستطيع معالجتها أو مطاردتها والتخلص منها • فخرافة « الزار » مثلا ظاهرة اجتماعية تتطلب دراسة تاريخية مقارنة فيها كثير من بواعث السرور ووسائل التشويق • وما تخيرنا الخرافة بين الأبحاث الاجتماعية الكثيرة الا لنلفت الأنظار الى هذه الأرض الخصبة التى لم تستكشف ، والى هذا العمل الذى لم يبدأ فيه بعد •

وقد لاحظنا من قبل اجماع بعض القبائل على اعتناق خرافة ما ؛ وفى هذا ما يؤذن أن للانسانية ، وان تنوعت بتنوع البيئة والوسط ، تراثاً عاماً يأخذه الخلف عن السلف ؛ وأن الانسان المتحضر ليس الا صورة مهذبة للانسان المتوحش • نحن فى كثير من أرائنا وعاداتنا وتقاليدنا عالة على من كان قبلنا ، بل تكاد تكون شخصيتنا ونظام تفكيرنا من صنع القرون الغابرة • فلندرس اذن النظم الاجتماعية على ضوء التاريخ ان كنا نريد فهمها على وجهها الصحيح ، لاسيما ونحن مخدوعون غالباً بما ألفناه • فكثيراً ما يلبس الشىء فى أعيننا لباس العقل والمنطق فى حين أنه يعتمد على أساس خرافى وأصل ضعيف • وكم من عمل عادى فردى أو جمعى نقوم به اليوم دون أن نعيره أية أهمية فى حين أنه كان بالأمس ذا

صلة بعقيدة خاصة أو عبادة محترمة • وقد تنبه علماء الاجتماع المحدثون الى هذا ، فشرحوا لنا أموراً ما كنا نفكر فى سرها وتعليلها• وعلى الجملة فالانسانية أشبه ما تكون بشجرة ممتدة الأغصان مترامية الأطراف مرت عليها عصور طويلة وأجيال كثيرة ، ولا يمكن فهم طبيعتها والمؤثرات فى ثمرتها ، الا ان بدأنا بجذورها الأولى ، وعرفنا كيف نمت وتكونت •

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٣٣٨٦

الثمن ٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة لل